الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

كلية الآداب و العلوم الإنسانية

قسم اللغة و الأدب العربي

مذكرة لنيل شهادة الماجستير

التخصص : اللغة و الأدب العربي

الفرع : نظرية الأدب

إعداد الطالب :

مرابطي نسيم

الموضوع :

مسار النظرية النقدية عند عبد السلام المسدي

لجنة المناقشة :

د/ آمنة بلعلى... ..أستاذة التعليم العالي بجامعة مولود معمري – تيزي وزو.....رئيسا.

د/ بوجمعة شتوان....أستاذ محاضر بجامعة مولود معمري – تيزي وزو-....مشرفا و مقررا.

د/ مصطفى درواش ....أستاذ محاضر بجامعة مولود معمري - تيزي وزو- .....ممتحنا.

د/ لوناس شعباني.....أستاذ محاضر بجامعة مولود معمري - تيزي وزو-..... ممتحنا.

تاريخ المناقشة:2010/04/06

∞ **كلمة شكر** ∞

بعد الحمد لله، أتقدم بالشكر الجزيل :
إلى الأستاذ المشرف " الدكتور بوجمعة شتوان " الذي كان سندا بالإشراف على هذا البحث و لما أولاه من اهتمام و توجيه و إرشاد.
إلى جميع أساتذتي الذين زودوني بنور العلم.
كما أتقدم بالشكر الخاص "للدكتور عبد السلام المسدي" الذي استقبلني و أرشدني طوال مدة إقامتي في تونس الشقيقة و كذا على نصائحه القيمة التي أفادني بها و كانت لي سندا في إنجاز هذا البحث.

✍ **مرابطي نسيم**

الإهـــــداء

أهدي ثمرة جهدي إلى أحب الناس و أقربهم:
إلى والدي أطال الله في عمره ما.
إلى من قاسمتني عناء هذا البحث الزوجة الكريمة .
إلى قرة عيني و ابتسامة شفاهي ابنتي الغالية ماريا .
إلى جميع إخوتي و أخواتي .
إلى عائلة الزوجة الكريمة بالأخص الأخ كمال .
إلى كل من ساعدني في انجاز البحث و شجعني و ساندني من قريب أو من بعيد .
و إلى كل الأهل و الأقارب و الأصدقاء .

مرابطي نسيم

المقدمة

إن ظاهرة تجاوز النهج التقليدي المعروف في النقد الأدبي قد أصبحت محل جدل كبير عند دارسينا ، و خاصة في هذه العقود الأخيرة ، لما طرأ من تحول عميق على ذات معنى الأدب ، والنقد، ولأن أدب اليوم هو غير الأدب بالأمس، و كما قال الدكتور "عبد السلام المسدي:"لأن النقد قد حالت عليه أحوال ، فأخذته إلى تخوم لم يعهدها من قبل .....".

و بهذا سنهتم بتحليل أعمال هذا الباحث و محاولة استقراء أهم إنجازاته في هذا المجال، في مجال خطاب النقد في أيامنا و ما كان عليه، و ما هي العوامل التي جعلت النقد الجديد واقعا ملموسا، و ما ه ي الكيفية التي نتعامل معه بها، فحضوره اليوم يوضع موضع سؤال، حتى أننا لا نجد في يومنا اسما من الأسماء المعروفة في الساحة النقدية ، لم يرم بسهم من الأسهم في هذا الاتجاه.

كما أننا نكتشف عقب الزمن أن الممارسة النقدية في ظل النهج التقليدي على الرغم من أنها استنفذت كل طاقاتها، و قدمت أقصى حد من المعرفة، إلا أنها في عجز مستمر عن تجاوز الأحكام الذوقية في تصوير الواقع و نقله أو التحدث عن الحياة الاجتماعية بصفة عامة.

فالأدب ليس سوسيولوجيا أو سيكولوجية زائفة ، و لكنه تنظيم خاص ل لغة ، له قوانينه وأدواته التي يجب أن تدرس في حد ذاتها ، بدل أن تختزل إلى شيء آخر ، تحت سلطان المقولة التاريخية أو الإيديولوجية .

لكن كيف يتسنى لنا اليوم التوافق مع نشاط نقدي جديد و استبيان هويته مع احترام مبدأ توالي الأحداث عبر التاريخ، ليكون في ذلك امتداد لثقافة الغير ، لنخلص إلى معرفة لا تعتمد مبدأ التراكم الميكانيكي و لكن تعتمد الاستقراء ، و الاستنباط، و إن صح الاعتراض على ظاهرة ما : فبالاستدلال، محققين في ذلك صفة العلمية في حدود مضبوطة ، بعيدة عن المواقف ذات الطابع الإيديولوجي، فهي كثيرة تملأ ساحتنا النقدية، على امتداد الوطن العربي .

وحاجتنا في هذا البحث هي محاولة استبيان أعمال الدكتور "عبد السلام المسدي " لما يستدعيه الكشف عن هذه الظاهرة و مأتاها و مصدرها لتتوضح لنا السبل و نضع نقدنا في مساره الصحيح، فهو يدعون في ذلك إلى نقد النقد و التساؤل عن المعرفة الإنسانية المعاصرة و أدواتها المنهجية المستحدثة و ما جاءت به الثقافة الحديثة بفضل آليات القراءة.

كما أن هذا الباحث عالج أكثر المسائل النقدية من زاوية لسانية ، فكان الوحيد الذي اقتحم ميدان النقد، سالكا في ذلك معبر الحقول اللسانية، و لا نقصد بذلك انعدام البحث اللساني في الوطن العربي ، بل نقصد بما قلناه، تعطل الفكر العربي على إضفاء الوعي اللساني في مجالسنا العلمية، على دراسة اللغة و الأدب.

و إذا صح ما ينسب إلى 'أرسطو' من قول، على أنه لا يعرف ما الحقيقة لكنه يعرف ما الخطأ، فإنه من الطبيعي أن نلاحظ مع مرور الوقت أنه لا جدوى من الاستغناء عن المنهج اللساني فقد بذل الباحث طاقة جهده، داعيا في ذلك التمسك بالعلوم اللغوية القائمة على الوصف والاختبار، واستقراء الظواهر، وصولا بها إلى الاستنتاج، بعيدا عن المواقف المعيارية، والتقييم و إصدار الأحكام، فليست هناك حقائق مطلقة، تقر بالخطأ و الصواب و لكن هناك المنهج التجريبي، الذي ينطلق من السبب إلى النتيجة .

فما أحوجنا إلى ثقافة الغرب الجديدة ، التي ترسم ارتقاء النقاد إلى ممارسة الحجة بالحجة وهذا من شروط الترقي في حقول العلم و المعرفة، كما يقول "بارت" في سياق ما : إن نتيجة النقد ليست الحقيقة و لكن مدى" الإفادة" (pertinence).

إن ما يروم البحث إليه ، هو النظر إلى التفاصيل النظرية ، في قراءة النقد العربي ، استنادا إلى الدكتور "عبد السلام المسدي"، لتمكنه من ابتعاث وعي إضافي، يتمم منجزات الوعي السائد، و تزويد القارئ بالأصول و المعايير المنهجية في الوقوف على العامل الجوهري و هو اللغة التي تعتبر العنصر الفعال، في إخراج الفرد من عزلته الوجودية .

إن الوظيفة اللغوية هي التي تدرب الإنسان على تذوق الجمالي ، و البحث اللغوي هو الصورة المتكاملة للمناخ الفكري الذي نشأ فيه، و كل ما يزخر به هذا الكون من أسرار لا يتم اكتشافه إلا عبر الآلة اللغوية، و لكن المهم عنده أيضا هو التساؤل حول اللغة البشرية، و ما يكتنفها من غموض ، و خير دليل على ذلك هو ما شهدته اللسانيات من شهرة عالمية .

كما أن الدراسة العلمية للغة ليست حديثة بل كانت محور من محاور اهتمام الشعوب السابقة منذ القدم، كانت هذه الدراسات ربما لأسباب دينية حفاظا على الديانات، بحيث سيكون لنا حديث في ذلك إزاء البحث.

أو لأسباب فلسفية شهدها كل من أرسطو و أفلاطون، فاللسانيات أصبحت في حقل البحوث الإنسانية تحتل منزلة استثنائية بلا مجادلة ، فهي في وقتنا الحالي كمن ينوه بالرياضيات أو الفيزياء أو علم الفلك.

فليس من المبالغة أن نقول أننا نكتشف أسرار الكون بمعرفة اللغة، لذلك يؤكد الباحث أن معرفة نفسك مبلغا بعيدا لا تتم إلا بالخروج من طور الحقيقة الذاتية إلى طور الحقيقة العلمية، وهذا يؤكد أهمية اللغة بانتقالها من الذات إلى مستوى الاصطلاح لتحقيق التواصل ، و الدراسة العلمية على مستوى التداول، كما وصفها بالشبكة العامة التي تغذي مختلف مصادر الاستعمال الفردي.

لذلك سنهتم بمسار النظرية النقدية لهذا الباحث ، انطلاقا من ممارسة مكثفة شملت حقبا أدبية عديدة، ابتداءا من منهجيته اللسانية، إلى أعماله الأخرى(إتجاهات البحث النقدي الحديث)، إذ أقبلنا على المادة نجمعها، فهي ليست بالأمر السهل في هذا المجال، لكن جمع المادة شيء و استثمارها في دراسة أكاديمية شيء آخر ، و لأن قدرة القارئ فقط غير كافية لتكون عمل مكمل للإبداع بإتباع أسلوب التلقي المريح للمعلومات.

و هذه الأخيرة – طريقة التلقي- غير كافية للوصول إلى فك شفارات النصوص و الكشف عن خباياها، فالممارسة جد ضرورية في استثمار طرق الإبداع و تناول هذا الخطاب بالتحليل والدراسة وفق قواعد معينة ، لأن النص نسيج من الفضاءات التي يجب ملؤها بالانتقال من وظيفة إلى أخرى بين فجواته، و الانفتاح عليه لتحقيق وظيفة الاشتغال .

و مع ذلك فإن هذه المذكرة تعالج هذه التفاصيل في خطوطها اللاحقة ، آثرنا عدم التعرض إليها لاحترام السياق الذي نحن بصدده، حرصا على تجنب التكرار، لأن جل أعمال الدكتور "عبد السلام المسدي" متصلة بالظاهرة اللغوية في مختلف تجلياتها ، انطلاقا من إمكانيات البشر على دراسة هذه المنظومة ، مرورا بمراحل تاريخية مختلفة ، ما يكسب ذلك القيمة المرجعية للتراث ، و بذلك أيضا أضحى العامل الزمني ملابسا للغة، وعاملا مسهما في تطويرها، و جعلها أقدر على تمثيل الفكر بتثقيف آلة تعبيرها ، و إثراء تراكيبها، و معجمها.

و هي بمثابة القوة الجاذبة للنقد الأدبي بين المعارف ، تتكون كل واحدة من وحداتها وفق نظام، كلما ارتقى هذا النظام كان خرقا للنسق المعهود، و لكن هل هذا الخرق حقق حضوره في الساحة النقدية العربية؟، أم أنه ينحصر بين ظلال التاريخ و الإيديولوجية؟ ، ثم هل ما نحن بصدده هو استكشاف للألوان الإبداعية الحديثة أم تصوير للتراث الأدبي العريق؟.

فإذا كان النقد الأدبي الجديد يحمل في طياته قابلية مرنة في النظر إلى ذاته، و استقراء لنتائجه على الدوام، فليس الأمر كذلك بالنسبة إلى نقدنا .

فما هي العوائق؟ و هل هي نابعة من واقع النقد العربي أو من طبيعة النقد الجديد في حد ذاته؟ ، و ما هي المعطيات الواجب تعديلها لتجاوز مواطن القصور ، أو الخلل في هذه التجربة وتداركها ؟ ، و ما هي الكيفية التي تعامل بها دارسينا، مع المفاهيم النقدية الجديدة، المستلهمة من المناهج الحديثة في النقد؟، و هل تم الوصول إلى تصور أدبي يراجع مبادئ العلم الذي يتخذه موضوعا له؟ .

و كيف تعامل النقاد مع مصطلح الأدب في ممارساتهم؟، و هل ما قام به الدكتور "عبد السلام المسدي" يعد كامتداد لما سبق؟ و ما هي الخلفية المعرفية المعتمدة في هذه الدراسات؟ و ما هي انعكاسات الفكر الغربي فيها؟.

إن هذه الأسئلة تقوم على فرضية ، قوامها : النظرية، المنهج، المصطلح.

و هذه الثلاثية مرتبة في إطار العد التنازلي :

أولها: النظرية ، فنحن نقرأ بالضرورة انطلاقا من نظرية ما، و حين نكتشف نظريات الأدب هذه نكتشف أيضا لماذا نقرأ ، فالمفهوم المعرفي المؤسس للأدب هو النظرية.

ثانيا : المنهج ، فالمنهج النقدي هو الذي يختبر توافق هذه النظرية مع مبادئها، و مسلماتها، و مقوماتها التي تسير وفقها.

ثالثا: مستوى الاصطلاح أو التداول، و هو مستوى اللغة و هو ما ركز عليه الباحث في حقل اللسانيات أو ما هو معروف عند الآخرين "بالفضاء الداخلي للغة" (1) .

و ما يهمنا أخيرا التعريف بطريقتنا في تنظيم العمل و مباشرته، أولا : الالتزام بالموضوعية و الأمانة في التقديم و الإشارة إلى أصحاب كل عبارة مقتبسة و إن لم تكن في بعض الأحيان مهمشة فهي محد دة مع السياق ، لنستهل في القسم الأول من هذه المذكرة بتقديم الأسس النظرية التي تشبع بها الباحث ، مركزا على مسار النقد العربي عقب التاريخ، إلى بروز النقد الجديد.

الوقوف على الأقسام الفرعية، و التحاليل الدقيقة في تطوير أداة النقد عندنا و من انتهى إليه التفكير العربي الجديد و ما أفرزه من معالم.

كما أننا نحر ص قبل مباشرة الدراسة على الالتزام ببعض القواعد الأساسية في البحث، لنستوفي شروط البحث العلمية ، متخذين في ذلك نسبية التسليم بالحقائق في كل علم، و التحلي بالكفاءة المعرفية و الوجاهة الأخلاقية، و محاولة تقديم البد يل إذا ما كان هناك اعتراض على أساس النقد البناء.

---

(1) G.Genette : figures I ,Edition du Seuil,paris, 1966, p 209 .

المبحث الأول

I - النظرية النقدية في تطورها التاريخي .

1- من النقد التقليدي إلى النقد الجديد.

2- الخصائص المنهجية .

3- المعيار اللغوي .

II -الدراسات الأسلوبية.

- 1 - خصائص الأسلوبية.

- 2- الوعي بالمنهج الأسلوبي.

-3- الأسلوبية و علم اللسان.

-4 – مبلغ الأسلوبية من مرحلة البحث العلمي.

- 5- تداخل الأسلوبية و علم البلاغة.

- 6- البعد الإيبستيمي لمفهوم الأسلوب.

- 7- الأسلوبية التعبيرية .

- 8- الأسلوبية البنيوية.

I - النظرية النقدية في تطورها التاريخي

من المعروف أن الحركات النقدية من خلال مسيرتها التاريخية مهما كان نشاطها الفكري ، فهي متغيرة في تطور مستمر، فاللاحق منها ينفي السابق، و يلغيه بعد أن يستثمر مفاهيمه، ليقوم مقامه على أسس جديدة ، لذلك يصح القول انه م هما كانت نظرية ما تقليدية في يومنا هذا، فهي في عصرها تجديدية، و بالتالي ما نعيشه اليوم من تجديد فهو تقليدي في الغد، بحيث كان "بوالو" يقصد ذلك عندما قال:" سنصبح بعد عدة قرون كلاسيكيين " ، فعندما نقبل في البحث تراودنا عدة أسئلة ، خاصة و نحن على دراسة أدبية نقدية ، و من هذه التساؤلات : هل فعلا يوجد نقد حديث؟.

وهل يمكننا الارتقاء إلى ضبط حدوده و حصر معالمه ؟ و على أي أساس هو نقد حديث؟.

1 من النقد التقليدي إلى النقد الجديد

إذا انطلقنا من فرضية أن هناك وجود نقد جديد ، و إن لم يكن ذلك إلا بالاحتكام إلى ما عرفه النقد الغربي ، تكون الغاية المستهدفة في التحليل هي التعريف بمقتضيات النقد الجديد، ومعالمه استنادا إلى الدكتور" عبد السلام المسدي" الذي قطع في هذا الميدان شوطا مهما ، و ما ميزه في ذلك هو النزوع العلمي الذي جعل النقد يتطور مماشيا لنظريات الأدب ، من مر حلة المذهبية إلى مرحلة المنهجية، بمحاولة استخلاص العناصر الفعالة ، و محاولة إدخالها في النسيج المنهجي الجديد.

و بعبارة أخرى هو الانتقال من المناهج السابقة إلى المناهج البنيوية، و ما بعد البنيوية ، لإحداث قطيعة مع الماضي ، في ظل تكامل مفتعل مع الحاضر، اعتمادا في ذلك الطرائق العلمية التجريبية الاستقرائية.

فالذي يقوم مقام المعرفة النقدية بالنسبة إليه، هو إبداعية اللغة التي اقتحمت الأدب و التاريخ و علم الاجتماع ....

فالناقد يختبر لغة الكتابة الأدبية ، لا مصداقية الكاتب كما كان يحصرها النقد الإيديولوجي، فهو يدرس تنظيمها الرمزي ، و المنطقي، و مدى قوتها أو ضعفها ، بغض النظر عن الحقيقة التي تزعم أنها تعكسها، لذلك استقر النقد الأدبي بذاته يحمل مبادئ تخصه، حتى و إن استلهم من المعارف المحايثة ، فإنها تتوالد معه، فيتخذها كتقنيات مصاحبة تسانده في اتخاذ أدوات المعرفة اللغوية الحديثة، في تفكيك الخطاب، و الكشف عن مراميه.

لذلك اشتد الإنتباه إلى مميزات اللغة التي عن طريقها نحاكي مختلف طرق الإبداع، وبالتالي أصبح الكشف عن الأدب و أدبيته، بعيدا عن المسلمات الذهنية في مناخها المستقر، واستحضار ما هو معروف عند "المسدي" بالمواقع بين" القارئ و المقروء" (1).

أما الهدف الذي نرتسمه من هذا الطرح فليس البتة زرع الشك في مبدأ تظافر النقد الأدبي مع فنون المعارف المحايثة ، و لا بذر الارتياب من ثمراته المنهجية، و إنما هو إثبات شرعية العلاقة بين النقد الأدبي و أفنان العلوم الإنسانية، بما يحفظ لكل طرف من طرفيها خصوصيته النوعية(2).

ما يستخلص مما تقدم هو ارتقاء الأدوات المنهجية المستحدثة في مجال النقد الأدبي، و ما طرأ من تغير في آليات القراءة، بمضامينها المعرفية الغزيرة، و لكن لا نظن أننا مطمئنون إلى ما انتهى إليه نقدنا، و حققه من مكاسب، لظهور الكثير من الإشكالات التي أصبح يثيرها، و التي لم يعهدها أكثر من عقدين من الزمن، بالرغم من تواجد نقاد نشهد لهم بالكفاءة، فإن مظاهر التعثر و أسباب القصور ما زالت قائمة، و الطريق إلى تحقيقها ما زال بعيدا .

---

(1) عبد السلام المسدي: في آليات النقد الأدبي ، دار الجنوب، تونس، 1995، ص 09.
(2) المرجع نفسه، ص 17.

إن المداخل إلى نقد النقد كثيرة، و السبل إليه متعددة، و التزاما بمبدأ الاقتصاد في الدرس مع الحرص أن يكون مفيدا ، ارتأينا إلى رصد جملة من المزالق المنهجية التي وقع في ها النقد الجديد عندنا في جملته و لم يبرأ منها، فنقد النقد كما قال الباحث:

" يستنهضك إلى التبصر بما يكمن وراء الظاهرة الأدبية ووراء العملية النقدية في نفس الوقت من متشابكات يتعاون كل من الأدب و النقد على إخفائها، فهو بذلك يستحثك أن تهتك الحجب و الأستار، فتنفذ بعين التبصر، و روح الاعتبار إلى حيث يغيب بصر الآخرين (1).

2 الخصائص المنهجية

فإذا تمكن الباحث من إدراك الخصائص المنهجية لكل ظاهرة نقدية ، بإحكام آلياتها، و ضبط المقولات الخاصة بها، بحيث تستقر هذه المقولات في الذهن، و تستخدم بطريقة الوعي الإدراكي يراعى فيها مجموعة الألفاظ الدالة عليها، نشأت لديه القدرة في إدراك حقائق الظواهر، و بذلك نجد للمدلولات المتواجدة في النفس ، ملفوظات اصطلاحية تسمح بتوسيع هذه الرقعة، و إخراجها من كينونة الفهم إلى دائرة الوعي و الإدراك.

و كلما كانت هذه الدورة نشيطة، حدث تعزيز اللغة الإصطلاحية التي يلتقي فيها الفن والجمال، ليشاركا الأدب في إحداث التمازج الفني، و تحقيق الإبداعية.

فعملية الإنتاج اللغوي مرتبطة بالدرجة الأول ى بالتلقي، و هذا المظهر يخرج من دائرة اهتمامنا، سواء كان ذلك على مستوى الخطاب المألوف المتداول، أو من خلال نظام علامي معين يقوم على وصف العالم و تأويله.

و عبر عن ذلك الدكتور " بسام قطوس" عندما قال: "النظرية، ببساطة تعبير عن دلالة فلسفية تحتمل المناقشة و التحليل ، أو تعبير عن حركة فكرية نشأت مع تطور الفكر التحليلي عند اليونانيين القدماء، و قبلهم عند الأكاديين كمحصلة استنتاجية لمعرفة ما جهله العقل الإنساني، أو ما خفي عليه، إنها بالنتيجة بحث عن حقيقة الأشياء و سبر لأغوار الفكر الإنساني"(2).

---

(1) عبد السلام المسدي : في آليات النقد الأدبي ، ص 12 .

(2) بسام قطوس : المدخل إلى مناهج النقد المعاصر ، ط 1 ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية ، 2006، ص12.

و جماع القول أن الكائنات تتحاور، و تتبادل القول، و تفصح عن المكنونات عن طريق آلة اللغة، المحددة في نسق معين، و بتبادل مواقع الدوال ، تنعكس صور بعضها في بعض بوجوه مختلفة، ووفق سنن متعددة ، فيغدو العالم لغة مفصحة، ناطقة ترتسم علاماتها على الأشياء داعية إلى فكها ووصلها و حل ألغازها.

و يقول دوبرفسكي :" أن نسند إلى النقد عبر إيبيستيمولوجية باطلة ، مجال الدلالات القائمة في الأثر نفسه، أي مستوى الوعي و التواصل ، الذي بلغ إليه هذا الأثر سلفا، يعني توجيهها نحو المجرد و تكرار البديهيات".(1).

فإذا لم تكن هناك دلالات تقوم مقام الأثر الأو ل، استقر النقد على ما هو عليه، فالإبداع يدرك في استمرارية شاملة للفعل و موضوعه، و فهم قوانين الحركة التي تضمن التتابع في هذه الاستمرارية ضروري، لفهم المبدأ الذي يسير عليه العمل الأدبي، و كيف يختزل موضوعه إلى معرفة .

إن علاقة النقد الآن بسائر العلوم الإنسانية، قد أدركت منزلة من الاستثمار الأقصى، بلغ معها فائض الفائدة، حدا يؤذن بتضخم حتمي تنحدر بفعله القيمة الأصلية و القيم المضافة (2).

فهذا الاستثمار الذي يتحدث عنه لا يتوقف على المبادرة في الإنتقال إلى دراسة المتغيرات المتحققة في اللغة ، و متابعتها، بل يتوقف على تعاقب القيم المضافة إلى القيم الأصلية، و ضرورة إدراك علاقة النقد الأدبي بسائر العلوم و كيف يستجيب لكل ع لم يقيم معه مراجعات على مبادئ تظافر المعارف ، و التخلص من الاختصاصات القديمة في مجال النقد، التي تتجلى في النصوص المقدسة أولا، و في تكريس التراث من جهة ثانية.

و الحاصل أن التأويلية المعاصرة تعكس هذه الظاهرة، و تفتح الباب على وتد غير مستقر بصفتها العلم القائم بنفسه، معالمه تؤسس اتجاهات المنظرين المحدثين ، فلاسفة أو علماء منطق ولغة.

---

(1) S . Doubrosky, Pourquoi la nouvelle critique , Mercure de France, 1966 , p 47 .

(2)عبد السلام المسدي : في آليات النقد الأدبي ، ص 29 .

فيما يختلف الأساس المعرفي الذي ينبني عليه نقدنا و فكرنا القديم عامة، و نحن نشاطر في ذلك موقف "أدونيس " المعبر عنه في مواطن عدة من الجزء الثالث من كتابه "الثابت و المتحول" و القائم على الحكم بأن موروثنا الفكري ينهض على الفصل بين اللفظ و الدلالة (1).

فالنقد الجديد بجميع فروعه و مختلف اتجاهاته يتأسس على مفهوم العلاقة العضوية بين الدال و المدلول، و إن انفلتت الدلالة من سياج الدال و طرقت مسالك معقدة، لتبادل ما يقر لها من مضامين، في سياقات مختلفة، من خلال سيرورة تأويلية لا تسلم بالحقائق المطلقة، متبعة في ذلك

صفة العلمية، استنادا إلى خلفية معرفية مشبعة بالفكر الحديث، الذي يقوم مقام التجربة و البرهنة في ظلال كثيفة من الشك على مشروعية البحوث و مدى مصداقيتها.

فالخواطر المعنية مهما بلغ مقدار وجاهتها و إصابتها و دقتها، تبقى محدودة القيمة لعدم خضوعها لتصور عام، أو انتظامها في إطار نظري مكتمل الجوانب.

و يقول في ذلك " حسن مصدق" :" و منذ عصر الأنوار ، حاول كل فلاسفة الوعي الذاتي (كانط ، هيغل، ماركس ....) ، إضفاء نظام منطقي و نسقي على الأحداث الإنسانية، و الوقا ئع التاريخية، بغرض أن يثبتوا أن عجلة التاريخ تسير بحتمية معلنة نحو غاية معينة، و قد تعددت مظاهر هذه الذاتية ، فهي تارة العقل الخالص (كانط)، و العقل المطلق (هيغل)، و الإنسان الأعلى(نيتشه)، و الطبقة (ماركس)"(2).

و يمكن إرجاع هذه الظاهرة إلى سبب رئيسي هو ظهو ر الدراسات الفلسفية، والإيبيستيمولوجية، و تعمقها في حقل الدراسات الأدبية، و الفكرية بصفة عامة ، و ما يشير إليه الباحث في أكثر من موطن من كتاباته على أن المعارف المستقرة تشير إلى طرق مسدودة، و إلى بيوت يخترقها التصدع لسكون أبوابها، و نوافذها، و انغلاقها على نفسها، لانعدام فجوات تعبو ها تهوية المعرفة، و حتى إذا كانت فيها مكيفات للهواء، فهي تكرر نفس التهوية لا أكس جين فيها.

---

(1) أدونيس : الثابت و المتحول – صدمة الحداثة ، ج 3 ، دار العودة ، بيروت ، 1997 ، ص 233 – 237 .

(2) حسن مصدق : يوغرن هابر ماس و مدرسة فرنكفورت – النظرية النقدية التواصلية ، ط 1 المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء - المغرب ، 2005 ، ص 74 .

فذهن الإنسان لا ينشط باستقرار الأمور المسلم بها في ذهنه، لأن حقائق اليوم قد تصبح أباطيل الغد، و أن تغيير وجهات النظر أو الفرضيات المستند إليها، في تناول الموضوع يفضي إلى تغييره، و الكشف عن جوانب ظلت خفية فيه، فلا يفضي الأمر بالحكم على العلوم بالصحيحة، فما هي الأحوال و المواقف في التقويم، بإرسال الأحكام حول مسائل لا تخضع للتجربة العينية، ولا لمقاييس الصحة و الخطأ ؟.

إن إيماننا بالمبادئ العلمية راسخ، و من الحقائق التي يثبتها العلم هي النسبية، و القول بوجود توتر دائم بين الدوال أمر لا نقاش فيه، فليس لنا بحدود ما تمده لنا المعارف اليوم، مقياس مخالف نحتكم إليه ليقر بوجود حقيقة مسلم بها، لأن تراكم المعلومات في جهازنا الفكري، لا تزداد فعاليته و تخصب، إلا عن طريق الاحتكاك و التفاعل، عن قناعة تقتضيها أحكام التطور، و بالتالي فإن معرفتنا خاضعة بدورها لأحكام القيمة ، و معاييرها و قابلة أن توضع موضع نقاش و سؤال، لتوسيع الهوية المعرفية، و تطويرها، حسب المواضيع المطروحة، و الفرضيات الضمنية، استنادا إلى مقياس علمي نحتكم إليه، و نعتمده أساسا للتقويم، و إبداء وجهات نظر تخص مدى قيمة الأخذ بأنظمة نقدية، ذات الاتجاهات و المصادر النظرية المختلفة، حتى و إن كانت خارج زوايا دائرة معارفنا، فلا إشكال في استثمار المعارف الغربية أو غيرها، لأنها قبل كل شيء معرفة إنسانية ذات طابع ثقافي، بشرط أن تأخذ هذه المعرفة و تدرس على الأوجه الصحيحة، دون الإخلال بمفاهيمها، و أن يحكمها نسق محدد يصله التكامل و الامتداد، لا الإنقطاع و القفز من أرضية إلى أخرى، مع احترام الإنتقال من مرحلة الهضم إلى مرحلة المشاركة الفعالة في الإنتاج.

و هذه المسافة التي تفصلنا بين الأرضيات، يشترط أن تحكمها السيرورة الزمنية، والموضوعية السليمة، لإحداث التواصل اللغوي السليم، و في هذه الحالة هل يمكن أن نتهم بكوننا نخل بهذه النصوص، و المصادرات، سواء أكانت أجنبية أم داخلية، و نحن نختزلها إلى شروط إنتاجها، المتكونة من علاماتها الذاتية، و دوالها، و ذلك بعدم ذكرها لاحقة إلا مقرونة بمفاهيم البناء الآلي ؟ أو بعبارة أخرى، لماذا يكون التصاق الدراسات النقدية و الأدبية بالمعارف اللغوية الحديثة في ظل علم اللسان ؟.

3 المعيار اللغوي

إن العمل الأدبي ينبغي أن يقوم بطريقة خاصة، و أن التناول اللغوي ضروري في فهم الآثار الأدبية و الكشف عن الخبايا الغامضة التي تكتنف اللغة البشرية، فكلنا نعرف أننا نفكر في كل شيء عبر هذه اللغة البشرية، و لكن لا ندرك أننا نكتشف الأشياء بمعرفة اللغة، انطلاقا من

الذات إلى خارجها، فقال الباحث بصدد ذلك : " لنثق إذن بأن المعرفة العلمية للكلام البشري، هي المفتاح الذهبي لكل أصناف المعارف بلا استثناء، فعلم اللسان اليوم خطر جليل في العلوم الكون ية قاطبة : ما صح منها عند أصحابه ، و ما قدرت حقائقه تقديرا، و من فضول ا لقول لدى ذوي العلم و الرجحان، أن يتحدث المرء اليوم عن منزلة اللسانيات و وجاهة شأنها، فلو فعل لكان كمن ينوه بالرياضيات الحديثة، أ و كمن يشرح فوائد أجهزة الإ تصال، و أهمية الأقمار الصناعية في البث الفضائي، أو كمن يفسر للناس أهمية تطور آليات الكشف عن أعراض الجسم حين تعتروه (1)

و هذا يدل على أن علم اللسان الحديث من أهم العلوم الإنسانية، و أوسعها مجالا ، ليس بالنسبة إلى ما قدمه هذا العلم من معارف فقط، و لكن بالنسبة أيضا إلى ما استفادته العلوم الإنسانية الأخرى، بتطبيقها لمناهجه الخاصة، على أبحاثها .

حيث أصبح اليوم متعذرا علينا البحث في أصول المنهجيات الفكرية، دون وصف الأصول اللغوية لها، و كشف الجذور المترابطة و الموحدة بين أطروحتها، و المرجعيات اللغوية التي تستند إليها(2).

فلا جدوى من البحوث الفكرية المختلفة، إذا كان في ذلك تحصيل لنفس ال نتائج من حيث الكم و الكيف، و الإمتثال إلى نفس النظريات و المناهج، فإذا اطلعنا إلى ذلك التعقيد الذي تتميز به اللغة، و حاولنا الكشف عن هذه الآلة التي نستخدمها اليوم في جوهرها الواقعي، سارعنا إلى إعادة النظر في النظريات و الفرضيات السابقة، محاولين في ذلك بطريقة علمية تجريبية، التوصل إلى طبيعة العلاقات داخل هذا النظام التواصلي.

---

(1) عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ، 1997 ، ص 10.
(2) إبراهيم أحمد : أنطولوجيا اللغة عند مارتن هيدجر، ط 1 ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف ، الجزائر، 2008، ص 19 .

و عن كمال محمد بشر يقول: " إن وظيفة علم اللسان، دراسة اللغة، أية لغة، من حيث أنها وظيفة إنسانية اجتماعية، لأن هذا العلم يدرس اللغة لذاتها، أي يدرسها دراسة موضوعية، تستهدف الكشف عن حقيقتها، فيصفها و يحللها تحليلا لا أثر للذاتية فيه (1).

و إن دلت هذه العبارات عن شيء، فهي تدل على مدى تعقد نظام اللغة التي يستخدمها الفرد في حياته العادية بطلاقة و يسر، دون أن يفكر فيما يقول، فكأنها أصبحت عنده عادة تكرارية يقوم بها بشكل آلي، تؤدي فقط الغرض المطلوب، و قد يبدو هذا طبيعيا في أي مجتمع يمكن ملاحظته، و لكن إذا تخصص الإنسان في أحد فروع هذا النظام، تغير عنده ذلك الانطباع الأولي الخاطئ الذي تصوره حول الظاهرة اللغوية، و أصابه الذهول بما فيها من تعقد في تركيبها الداخلي، وطريقة تعبيرها عن الدلالات، التي لا أثر لها أن تكون قائمة أو ثابتة.

و كلما حاول عالم اللسان في وصف اللغ ة البشرية، و إخضاعها إلى ميدان الدراسة، يجد أمامه نظاما في غاية التعقيد، يتألف من أنظمة فرعية لا تقل تعقيدا، و بالتالي ممارسة اللغة شيء ودراستها شيء آخر، و في ذلك مثل الطفل الصغير، الذي لا يلبث أن ي تجاوز سن الثالثة، فإذا به يتقن هذه اللغة على ميدان الممارسة، على الرغم من صغره، و عقله الذي لا يزال في طور النمو المبكر.

و عن نايف خرما يقول : "فإذا اطلع عالم النفس بشكل خاص على ذلك التعقيد الذي تتميز به اللغة، سارع إلى إعادة النظر ....، لعله يتوصل إلى حل هذا اللغز العجيب، يشد أزره في اتجاه ما يلاحظه من فشل معظم الراشدين في تعلم لغة أجنبية، و إتقانها كما يتقنها ابن الرابعة، على الرغم من مثابرتهم، و قوة الحافز لديه م، و قضائهم السنوات الطوال و هم في قمة نضوجهم العقلي، في محاولة الوصول إلى ذلك" (2).

---

(1) عبد السلام المسدي : اللسانيات من خلال النصوص ، ط 2 ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1986 ، ص 50 .
(2) المرجع نفسه ، ص 52 .

لا يمكن أن نذهب في مثل هذه الأسئلة إلى نهايتها، لأنه ربما لا توجد نهاية فعلية لها، فقط لنبين أن فوائد الدراسات اللغوية، و البحث في قضاياها، يعادل في أهميته، أهمية اللغة نفسها، فالاهتمام الواسع الذي أولاه الإنسان لدراسة اللغة منذ القدم حتى اليوم ، لا يمكن أن يكون عفوية مطلقة عبر التاريخ، لأن التفكير اللغوي عبر الحضارات الإنسانية كان المنطلق الذي انبنت عليه حركة اللسانيات الحديثة.

و هكذا تسنى للسانيات أن تلتحق بالمعارف الكونية، إذ لم تعد مقترنة بإطار مكاني دون آخر، و لا بمجموعة لغوية دون أخرى، و لا حتى بلسان ما دون الألسنة الآدمية الأخرى، فهي اليوم علم شمولي لا يلتبس البتة باللغة التي يقدم بها، و في هذه الخاصة على ا لأقل تدرك المعرفة اللسانية منزلة العلم الدقيق.....، و باللغة نتحدث عن اللغة، و تلك هي وظيفة ما وراء اللغة، و لكننا باللغة أيضا نتحدث عن حديثنا عن اللغة، بل إننا باللغة بعد هذا و ذاك نتحدث عن علاقة الفكر باللغة، إذ هو يفكر من حيث هي تقول ما هو يقول (1).

وصف المسدي الدراسات اللسانية بالم نزع الشمولي، لأنها كما قال، تتجاوز حواجز المحضورات، أمام طريقها، أي أنها لا تعكف على ظاهرة معينة ، لتقر بها فتنسب إليها حقائق مرسخة، و لكن تستلهم من هذه الظاهرة و من غيرها ، في تقاطع مجالات الفكر من الكل إلى الجزء، و من الجزء إلى الكل ، حسب الضرورة المتطلبة في الكشف عن ظاهرة ما، بمنظور علمي يتماشى مع التفكير الإنساني الحديث.

---

(1) عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات ، ص 12.

• *الدراسات الأسلوبية*

لا يكتفي الباحث بإرسال أحكام تقويمية، تتبوأ منزلة الدراسات العربية عامة، و الدراسات الأسلوبية بوجه خاص، إنما يحاول استقراء الظاهرة، و رصد الأسباب العميقة لها، واضعا إياها في إطار مشكلية التعامل مع الفكر العلمي الحديث، في استنطاق الآثار الأدبية في خصائصها الفنية، و بنيتها الأسلوبية، كما أن الباحث يؤكد أن الدراسات العربية الحديثة، لا تساير عصرها،

لأن دارسينا تمثلوا الحداثة و تشربوها حتى خالطت كيانهم ، و لابست وجودهم، و غدت منصهرة في التاريخ:

" و لهن تمثل الفكر الغربي، هذين التوأمين، منذ أحقاب، حتى صهرا في بوتقة تاريخيته، فإن المنظور العربي لا يزال يتصارع و إياهما" (1).

فهذه الثنائية، الحداثة و المعاصرة، تظل مشكلا عند العرب، لم يهتدوا إلى ح له، و لا إلى استبانة الطريق الكفيلة بجعلهم ينخرطون في عصرهم، لغموض المسألة و تشعب المسالك، و كثرة الضغوط، والعوامل المؤثرة و تناقضها.

لذلك يتضح لنا أن ولادة الأسلوبية عند العرب، لم تكن يسيرة تمام اليسر، و إنما صاحبها و لابسها، ما يلابس عادة الحركات التجديدية من جدل، و هي تتذبذب بين موضوعية اللسانيات و نسبية الاستقراءات، و جفاف المستخلصات، لذلك نادى الباحث بضرورة الإلتفات إلى البحث المنهجي المنضبط، و الروح العلمية الصارمة، و تكثيف الدراسات الأسلوبية.

لأن قصور و ضعف البحوث في الأسلوبية يعتبر من الأسباب العميقة، التي أدت إلى تعثر النقد عندنا، حيث قال الباحث بصدد ذلك :" هذا المخاض الذي عرفته دراسة الأسلوب، سواء في صلب المدارس: اللسانية منها و النقدية، أو في معزل عن هذه و تلك، هو الذي فجر بعض مسالك البحث الحديث، و أخصب بعضها الآخر" (2).

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ط 5 ، دار الكتاب الجديدة المتحدة / بنغازي – ليبيا ، 2006 ، ص 19 .
(2) المرجع نفسه ، ص 24.

لذلك ذهب المسدي بعيدا ليقارن بين مداخل علم الأسلوب، و مسالكه الحديثة عند كل من " بالي"، الذي يرى الأسلوبية، على أنها ما يقوم في اللغة من وسائل تعبيرية، تبرز المفارقات العاطفية و الإرادية و الجمالية، و حتى الاجتماعية ، و النفسية، فهي حسبه المقطع العمودي على كل مستويات الاستعمال في اللغة، غير أن رواد علم الأسلوب، و منهم تلامذة " بالي" من نبذ هذه

الطريقة و عزل الأسلوبية عن الخطاب الإخباري، و قصر عليها الخطاب الفني : كما يرى كل من " والاك " و "فاران" أن اللغة هي القاسم المشترك بين اللسانيات، على أساس أنها موضوع العلم و الأدب و مادته، أما "جاكوبسون" فإنه يقتصر على أن الأسلوبية جزء من اللسانيات.

كما يعود الالتباس في تصنيف الأسلوبية بين كل من م .آريفاي (Michel Arrivé) الذي يعتبر الأسلوبية وصف للنص الأدبي بحسب قواعد اللسانيات، و "دولاس" الذي يعرفها بأنها منهج لساني، و أخيرا "ريفاتار" الذي يقر على أنها علم يهدف إلى الكشف عن العناصر المؤثرة في الخطاب، فيعتبرها لسانيات تقف على ظاهرة : الفهم و الإدراك.

و هذه الآراء هي بمثابة مجموعة من الفرضيات تمثل أرضية للتفكير الأسلوبي الحديث، اعتمدها الباحث في التحليل، ثم خلص إلى لسانيات "سوسير" التي كان لها مولودان، أولهما آني يتمثل في الأسلوبية على يد تلميذ "بالي"، و الثاني زماني لم يشهده "سوسير"، و يتمثل في بروز المنهج البنيوي، و صورة ذلك كما قال :

"هي كل يقوم على ظواهر مترابطة العناصر، ماهية كل عنصر وقف على بقية العناصر، بحيث لا يتحدد احدها إلا بعلاقته بالعناصر الأخرى، فاعتبر الحدث اللغوي جهازا، تنتظم في صلبه عناصر مترابطة عضويا، بحيث لا يتغير عنصر إلا انجر عن تغيره تغير وضع بقية العناصر، و بالتالي كل الجهاز، و ما أن يستجيب الكل لتغير الجزء، حتى يستعيد الجهاز انتظامه الداخلي"(1).

لذلك نفهم أن اللسانيات، كان لها دور كبير في إنجاب رصيد من المعارف، منها البنيوية التي احتكت بالنقد الأدبي، فأنتجا شعرية "جاكوبسون" و إنشائية "تودوروف" و أسلوبية "ريفاتار".

---

(1) المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 42 – 43 .

و بالتالي يخلص الباحث إلى أن اللسانيات و الأسلوبية في تساير مستمر، أما الأسلوبية والبلاغة لا يستقيمان على مفهوم إبيستيمي موحد، فالرأي القائل بان الأسلوبية وليدة البلاغة، ووريثها المباشر لا يقبله الباحث فيقول:

" معنى ذلك أن الأسلوبية قامت بديلا عن البلاغة، و المفهوم المعرفي للبديل- كما نعلم- أن يتولد عن واقع معطى وريث ينفي بموجب حضوره، ما كان قد تولد عنه، فالأسلوبية امتداد للبلاغة، و نفي لها في الوقت نفسه، هي لها بمثابة حبل التواصل و خط القطيعة في الوقت نفسه أيضا".(1).

و على الرغم من إبراز الفروق بين العلمين، فإن الباحث ينتهي إلى أن البلاغة العربية "ما برحت قادر على أن تقدم للدرس الأسلوبي اللساني زادا وفيرا من التصورات و طرق التحليل ، يمكنه بإعادة صياغتها أن يحكم بها وسائله الفنية في مقاربة النصوص ". (2).

إلا أن هذا الطرح لم يتحقق على هذه الصورة من الوضوح إلا بعد مخاض انتاب "البلاغة القديمة تولد عنه علم الأسلوب .....، الذي قام عليه علم الأسلوبيات، كصور إجرائية لمقولاته المختلفة، في إطار التصور اللغوي الجديد، معززا بمقولات الألسنية و البنية و علم النفس"(3).

و حاصل ذلك أن للبلاغة صور نموذجية ، ثابتة، تنزل منزلة المثال الأكمل، الذي يتجاوز المجهود الفردي، و القيم التعبيرية الذاتية، بحيث يتم الاحتكام إليها في عملية التقويم، فيكون الحكم بالجودة، أو الرداءة، بالحسن أو القبح، بحسب مدى التقيد بها و النسج على منوالها، فهي تحتكم إلى قواعد و أبنية صارمة، يك لف الخروج عنها أو عدم التزامها جزءا سلبيا، يستند فيها كل شكل تعبيري إلى قيمة جمالية محددة، مثل : التكرار و المبالغة و التتابع و الإطناب و هي صور الزيادة، إضافة إلى صور الحذف كالإيجاز و التلميح، و الانطلاق من ذلك إلى تقسيم الأسلوب ذاته إلى طبقات : أسلوب سام و متوسط و مبتذل.

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 44.
(2) بسام قطوس : المدخل إلى مناهج النقد المعاصر ، ص 114.
(3) حبيب مونسي : نقد النقد – المنجز العربي في النقد الأدبي – دراسة في المناهج ، منشورات دار الأديب ، الجزائر، 2007 ، ص 202 .

من كل ذلك يخلص "المسدي" إلى القول بأن البلاغة تمحضت اتجاها متعاليا، " يتسم بالتصور ما هي تسبق بموجبه ماهيات الأشياء وجودها و الفكر اللغة".(1)

1. خصائص الأسلوبية

أشارت معظم الدراسات العربية في هذا المجال إلى أن الأسلوبية لا تقوم مقام الب لاغة، تتحدد على نماذج قبلية تسقطها على الأشياء فتكون سابقة لوجودها، و لكن الأمر ف ي الأسلوبية مختلف، تتحدد الأشياء عندها بوجودها ، و بما هي قائمة عليه، ماثلة به فوجهتها وصفية تجريبية أصلا و مباشرتها للخطاب هو موضوع دراستها ، لا يعتمد الفصل بين الشكل و المضم ون، بل هي تجمع بينهما معتبرة إياهما وجهين لعملة واحدة .

فالأسلوبية تفهم اللغة في كونها إبداعا، بينما ينظر إ ليها التحليل اللغوي كمجال للتطور والتاريخ، و يبقى الأسلوب اعتبار ذاته مصبا للقيم التعبيرية و الجمالية معا، و لا يستبعد أبدا اعتبار الفكر اللغوي- هو الآخر- فكرا أسلوبيا مفعما بالدلالة، إبتداءا من الصوتي و الصرفي، والنحوي، و التركيبي.(2).

كما تختلف عن البلاغة في أنها ليست معيارية تقويمية، محكومة بقوالب جاهزة تلقن في المؤسسات التعليمية و تفرض على الإبداع، إنما تتقيد بمناهج العلوم الوضعية، و تحصر مهمته ا في وصف الظاهرة الإبداعية وصفا موضوعيا، أي تنكشف صورة الأسلوبية، و تظهر انطلاقا من موضوعها الإخباري، و بالتالي هي تحمل أصول و مناهج خاصة بذاتها.

و يتفق في ذلك "صلاح فضل" مع الباحث في وصف الظاهرة، فيقول: " تبوأت الأسلوبية منزلة المعرفة المختصة بذاتها أصولا و منهجا ".(3).

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب، ص 50 .
(2) حبيب مونسي : نقد النقد – دراسة في المناهج ، ص 203 .
(3) صلاح فضل : علم الأسلوب – مبادئه و إجراءاته ، ط 2 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985 ، ص 17 .

و قد انطلق الباحث بتحديد خصائص الأسلوبية بالقياس إلى البلاغة، بإبراز السمات الموضوعية للأسلوبية، و بتحديد الأ سس النظرية و المنهجية لكلا الاتجاهين، كما أن الأسلوبية ترتبط ارتباطا وثيقا بالكلام و التعبير الفردي، الذي يتجسد في اللغة التي تعد نظ اما من الرموز والعلامات، تتمثل فيها المكنونات البشرية بنوع من الاتفاق الاجتماعي، فهي سبيل الفرد لعقد

الصلة بغيره و التفاهم معه، و يقتضي هذا التفاهم أو التعامل الالتزام بقواعد المخزون الجماعي، وتنظيمه لتحقق أدنى قدر من التفاهم، لكن الفرد يحاول من الناحية الأخرى، تطويع هذا النظام اللغوي لحاجاته، و لما يدعوه إليه الظرف، و ما يمليه عليه مزاجه و حالته النفسية، فكل هذه المؤثرات له‌ا دور هام في صنع أسلوب محدد، فإذا باللغة تتلبس نتيجة ذلك أشكالا متعددة و مختلفة، تعدد الأفراد المستعملين لها و تحدد اختلافاتهم، و ما الأسلوب إلا حالة خاصة من الاستعمال الفردي للغة، و لإبراز هذه الحالة الخاصة قاد التحليل إلى المقارنة بين الخطاب العادي، والخطاب الأدبي، و التركيز – تخصيصا- على هذه القيم المضافة التي يختص بها النوع الثاني من الخطاب، فعلى النقيض م ن الخطاب العادي الذي لا تتعدى وظ يفته مجرد التعبير عن الحاجة المباشرة، وتبليغ الرسالة المقصودة بعملية التلفظ، يرمي - الخطاب الأدبي - إلى غايات جمالية و نقل شحنة انفعالية، تؤثر في المتلقي و تثيره وجدانيا.

و هذا ما يكسب الخطاب في كل مرة قيم تعبيرية تحمل صبغة فنية معينة خاصة به، كما أن هذه القيم ليست مجرد صبغات أو ألوان و ثياب خارجية تكسو الخطاب و تزينه، و لا هي آتية من العدم أو العفوية و الاعتباط، إنما تلابس الخطاب و تكسبه بدائل محملة بالطاقات الذاتية، المؤثرة والمثيرة في الوقت نفسه، للحس و الشعور بالجمال.

و الدراسة الأسلوبية تكمن مهمتها مباشرة في الكشف، و تحليل هذه الخصائص و الطاقات الجمالية، المؤثرة في الخطاب، و يقول "المسدي" محللا الغايات الجمالية المقصودة من عملية الخطاب الأدبي في موضوع الأسلوبية : " إذا كانت عملية الإخبار مجرد علة الحدث ال لساني أساسا، فإن غائية الحدث ا لأدبي تكمن في تجاوز الإبلاغ إلى الإثارة، و تأتي الأسلوبية في هذا المقام لتتحدد بدراسة الخصائص اللغوية، التي بها يتحول الخطاب من سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية و الجمالية". (1).

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 33 .

فإذا كان المنطلق من البحث الأسلوبي يقوم في المرحلة الأولى على التحليل المخبري للغة التي قدمها الخطاب الأدبي، في هذه الحالة تكون مهمة المحلل الأسلوبي هي وظيفة الناقد الأدبي، فيذهب بعيدا في التحليل إلى ما يحمله البحث من بصمات ذاتية، سواء كان الخطاب منقول عن فرد أو جماعة، أو في مرحلة من المراحل التاريخية، و لتأكيد ذلك يحيل "المسدي" على تعريف

"جاكوبسون" للأسلوبية بقوله: " إنها تبحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا، و عن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا". (1).

2. الوعي بالمنهج الأسلوبي

يطالعنا في المقدمة التي وضعها "عبد القادر المهيري " لكتاب " عبد السلام المسدي" (الأسلوبية و الأسلوب)، إلى الإشارة أن مناهج البحث الحديثة الموصولة بعلم اللغة، أو المشتقة منه، اكتسبت من الصرامة العلمية، و تجنب النزعات الذاتية و الذوقية، بحيث لم يعد في و سع الدارس تجاهلها أو الاستغناء عنها، إلا أنه ينبه في الوقت نفسه، إلى أن التوفر على هذه المناهج لا يجدي و لا يؤتي ثماره، و نتائجه المرجوة، ما لم يحذر القارئ بعض المزالق.

لذلك لا يمكن الولوج في الدراسات اللغوية و الأدبية إلا إذا تفقه الدارس العربي في هذا الفرع الجديد من علوم اللغة، واحترم ثلاثية الانطلاق من النظرية مرورا بالمنهج، للوصول إلى مستوى المصطلح التداولي، لأن علوم اللغة و الأدب تتمثل نظريات و أسس، يجدر بنا تفهمها، والإمساك بزمامها، و إدراك صبغتها النسبية، و كما قال "المهيري" في هذه المقدمة، حتى لا ينتاب الدارس العربي بأنه " فاز بالقول الفصل و ظفر بالمنهج الذي لا كمال يرجى بعده" (2).

فالحاجة إلى إثراء مناهجنا، و طرقنا في المباشرة النقدية، حتى و إن كانت من أساليب بحث غربية، حرصا على توفير أسباب النهضة و الانخراط في حركة النقد الحديثة، بكفاءة واقتدار، مع الوعي بأن تراثنا النقدي و ما يزخر به من رؤى تستحق أن نولي إليها عنايتنا، و نعيد إليها الاعتبار، مع الوعي و الإدراك بأن الاكتفاء بما انتهى إليه تراثنا و الاطمئنان إلى مسلماته،

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 23 .
(2) المرجع نفسه ، ص 12 .

يشكل خطورة خطيرة في حد ذاتها، لما قنع به بعض مثقفينا و ركنوا إليه بدعوى أنه بلغ غاية الاكتمال، و هذا يدل على قصور في النظر، و تقصير في البحث، و بذلك فالسبيل الوحيد إلى استنطاق الذات و معرفة ما يكتفيها من غموض يتم عبر معرفتنا بالآخر، و في الوقت نفسه معرفتنا بأنفسنا للتزود بالآلة النقدية .

و بالتالي حتى و إن اطلع هذا الآخر على أعمالنا و منجزاتنا، وجد فيها ما يستحق من التفاعل معها، فلا يتملكه التعالي، و الافتخار بالنفس على حساب المعرفة العربية، و هذا النوع من الحركية لا يمكن أن يتحقق إلا إذا أدرك الباحث العربي الأسس الموضوعية و العلمية التي تعتمدها الدراسات الفكرية الحديثة، و الأخذ بالمناهج بطرق سليمة.

و أشار إلى ذلك " صلاح فضل " بقوله: " المناهج تمضي بالتدرج و التنزل من الآثار النظرية إلى البحوث العامة المنهجية، حتى تصل إلى التحليلات النصية التطبيقية المحددة، و يسير علم الأسلوب على وجه الخصوص في هذا الصدد موازيا لعلم اللغة الذي تمضي حركة البحث فيه بنفس الطريقة، ابتداءا من النظرية اللغوية، التي تقدم الإطار المفاهيمي و المعرفي للدرس اللغوي" .(1).

فللباحث يدعو إلى ضرورة تقويم الدراسات العربية الحديثة، نظرا لاضطراب الرؤية والافتقار إلى المنهج إلى وجوب التزود بما جد عند الغربيين من أساليب بحث جديدة، يخص بالذكر منها الأسلوبية، و إدراك ما توفره من أدوات تحليل دقيقة و مفيدة، و هذا هو الشرط الأساسي لتطوير نقدنا، و ضمان لتجديد النظرة إلى أدبنا قديمه و حديثه ، للوصول إلى المكان المطل على مشارف العصر.

---

(1) صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، 2002 ، ص 92 .

3- الأسلوبية و علم اللسان

من الواضح أن الأسلوبية انبثقت من الفكر اللغوي و الأدبي، باعتبارها مشتقة من رحم الألسنية، و هما في صلة مستحكمة على امتداد التاريخ، رغم المحاولات العديدة ، لإيجاد طرق

تحقق مبدأ الاستقلالية لتستقيم كمبحث قائم بذاته، إلا أن أسباب الاتصال بين علم الألسنية والأسلوبية حميمة، تستقي آثارها من منبع واحد ، و هو اعتمادهما اللغة عنصرا مشتركا، ويستدل" المسدي" على استحكام الصلة بين هذين المبحثين، لما يؤكده "ولاك" و "فارن" من أن "اللغة هي القاطع المشترك لدائرتين متداخلتين، فهي للألسنية موضوع العلم ذاته، و هي للأدب المادة الخام شأنها شأن الحجارة للنحاة، و الألوان للرسام، و الأصوات لواضع الألحان".(1).

و لا يختلف موقف "صلاح فضل " عن المواقف السابقة، في القول بمثانة الروابط القائمة بين الأسلوبية و الألسنية، و بأن تلك تستند معاييرها، و توظيف مبادئها المنهجية، حتى غدت فرعا جزئيا منها، تخضع لشروطها العامة في التحليل.
" و تقف في معظم الحالات إلى جوار النظرية النحوية و تماثلها" (02).

و يشير "المسدي" إلى أن لفظ الأسلوبية، منحوت سواء انطلقنا من اللغات اللاتينية أو اللغة العربية ، و يحيل على " مدلول ذاتي إنساني و بالتالي نسبي" ، و لاحقة "ية" ique ، " و تختص بالبعد العلماني العقلي و بالتالي الموضوعية " ، منتهيا إلى استخلاص أن الأسلوبية "تعرف بداهة بالبحث عن الأسس الموضوعية، لإرساء علم الأسلوب" (3).

و يضيف "شكري عياد" إلى الملاحظة نفسها، مضيفا أن أصل الكلمة اللاتيني هو Stylus و المقصود به أداة الكتابة أو القلم، أما اللاحقة فتفيد "البعد المنهجي للعلم المعني بدراسة الأسلوب" .

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 42 .
(2) صلاح فضل : علم الأسلوب ، ص 115 .
(3) المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 30 .

مهما كانت الأسلوبية تتبوأ منزلة العلم، الذي منه تولدت ، فبين المبحثين من أسباب الاختلاف، و من الحواجز النظرية المنهجية الفاصلة ما يجعل تجاهلها، و الجمع الآلي بين هذين الضربين نوع من التعسف، و الإدعاء الباطل، بالالتحام العضوي و المزاوجة التامة، و هذا الاختلاف يمكن أن يتحدد في طبيعة العلامات اللغوية لكلا المادتين، لأن علم الأسلوب يهتم بدراسة

النصوص المكتوبة، ملغيا بذلك من مجاله جميع أنواع المنطوق و أشكاله، على خلاف علم اللغة الذي ينصرف إلى دراسة الشفوي.

و يعلل ذلك "المسدي" في قوله : "أما تحديد ماهية الأسلوب باعتماد جوهر الخطاب في ذاته فلعله الركن الضارب في مجمع رؤى الحداثة، لما يتجذر فيه من ركائز المنظور اللساني" .(1).

و يضيف إلى ذلك "صلاح فضل" قائلا: أن الأول – أي الخطاب الشفوي – يرمي إلى التعبير المباشر عن الحاجات، و تبليغ المقاصد بأقرب السبل، و أبسط الوسائل، من ثم كان نزوعه إلى العفوية، فيما يخضع الثاني لمواضعات و سنن بيانية و جمالية تبعده عن العفوية، وعن النزوع إلى تبليغ الرسالة تبليغا مباشرا نفعيا .(2).

كما أن الأسلوبية تحل من الألسنية محل الكلام من اللغة، أي أن اللغة في المنظور الألسني مخزون مجرد خاضع لنظم و قواعد تركيبية محدودة العدد نسبيا، ماثلة بالقوة في ذهن المجموعة المستعملة لها، و قادرة على توليد عدد لا يحصى نظريا من الملفوظات العينية، و يؤدي هذا إلى تعريف الكلام، من حيث هو تحقيق فعلي لبعض إمكانات هذا المخزون الجماعي المجرد.

ولما كان الفرد يرغب عند استعماله اللغة في التعبير عن ذاتيته، نزع تلقائيا إلى تجاوز الضغوط المفروضة من اللغة، و الابتعاد عن نماذج التعبير المألوفة ، المستهلكة، إلى التصرف الذي يبعده عن المتداول، و يسمح له بالإفصاح عما يختلج في نفسه مع احترام الحد الأدنى من المتواضع عليه، حتى لا يتعطل الفهم و يختل الحوار و التواصل.

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 71.
(2) صلاح فضل : علم الأسلوب ، ص 114 .

هذا الاستعمال اللغوي المخصوص، أو السمة الفردية، و المحقق في الأعمال المكتوبة، هو ما تختص بدراسته الأسلوبية، و هو ما يؤكده دارسون عرب في مواطن كثيرة من دراساتهم و من ذلك قول "المسدي" : " المهم في مقامنا هو أن التمييز بين اللغة كظاهرة ألسنية مجردة توجد ضمنيا في كل خطاب بشري، و لا توجد البتة هيكلا حيويا ملموسا و الكلام باعتباره الظاهرة

الهجسدة للغة قد ساعد على حصر مجال الأسلوبية بالجدول الثاني من الظاهرة، و هو الحيز العملي المحسوس المسمى عبارة أو خطابا أو نصا أو رسالة أو طاقة بالفعل"(1).

و تبقى الأسلوبية نشاطا مارسته أغلب المعارف، و هي متداخلة مع حقول معرفية كثيرة، ويقول " بسام قطوس" في غرار ذلك، على أنها أوسع من أن تكون منهجا نقديا بسبب تعدد ميادينها، و تداخلها مع حقول أخرى كثيرة، كالنقد الأدبي و علم البلاغة و اللسانيات و علم النص ، حتى أن الأسلوبية نفسها غدت أسلوبيات، و هو المصطلح الذي يؤثره "سعد مصلوح"، حيث جعله مقابلا للمصطلح الإنجليزي (linguistic stylistics) ، و قيده بوصف اللسانية مؤكدا المنطلق اللساني في شرح العلاقة بين البلاغة العربية، و هذا الفرع من فروع الدراسة اللسانية المعاصرة.(2).

هكذا تتشعب سبل دراسة الأسلوبية، و تواجه من الإشكالات و القضايا ذات المدى التأسيسي، ما لا يواجهه ا لبحث الألسني المنصرف أساسا إلى دراسة الظاهرة اللغوية دراسة وصفية تجريدية موضوعية .

و تختصر جميع الإشكالات في التساؤل الذي يثيره "المسدي "، و هو كيف يتهيأ للخطاب أن يحمل علاوة على الدلالة العادية المعنية بعملية التبليغ "طاقة ضاغطة تتسلط على المتلقي وتثير فيه شعورا جماليا، أو انفعالا ما ".(3).

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 35 .

(2) بسام قطوس : المدخل إلى مناهج النقد المعاصر ، ص 103.

(3) المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 32 .

و تختصر الإجابة في القول أن الباث في الخطاب العادي لا يكلف نفسه عناء التأنق، إلا ما تفرضه عليه أدوات اللغة و قواعدها، و الضغوط التي يفرضها المقام عليه، عكس الأسلوب الأدبي الذي يحمل ميزة الاختيار بين عدة احتمالات في سجلات القول، و يقوم بعملية الفرز للوصول إلى المتطلبات التي تحقق الأسلوب الموازي للمقام المناسب.

4- مبلغ الأسلوبية من مرحلة البحث العلمي

إذا تطرقنا في البحث عن الدراسات الأسلوبية على صعيد الوطن العربي، تبين لنا أن أغلب الدارسين العرب لم يبدوا مواقف صريحة من المسألة، و لم يتجهوا اتجاها حياديا يحمل وجهة نظر معينة، إما تحاشيا للانزلاق في الأحكام المتسرعة أو التورط في إحدى المواضيع التي لم يتم الفصل فيها، و التحكم في زمامها، و مهما يكن فالظاهر أنهم أثاروا التزام الموضوعية في نقل ما انتهى إليه علمهم بالمسألة، واطلاع القارئ بأمانة على اتجاهاتها، بصرف النظر عن قيمة هذه المعرفة اتقاء الوقوع في مزالق الأحكام.

و يرى"المسدي" بصدد ذلك بأن الأسلوبية بلغت حدا من الاكتمال، يجعلها جديرة بالحلول في مرتبة العلم مع إقراره ببشابك مساراتها، و تشعب مداخلها و مسالكها، و لكنه يقرن أيضا بأنها تعانق العلوم اللسانية، لعدم فصلها بين الشكل و المضمون، و تركيزها تبعا لذلك على النص في ذاته، مقصية ما عداه من عوامل خارجية، و لهذا المبدأ بالبنيوية اللسانية و من ثم بالمنهج العلمي أكثر من سبب اتصال.

فالأسلوبية "تتحدد بكونها البعد ا للساني لظاهرة الأسلوب، طالما أن جوهرالأثر الأدبي لا يمكن النفاذ إليه، إلا عبر صياغ اته الإبلاغية، و يتدفق هذا التعريف ذو البعد الألسني شيئا فشيئا حتى يتخصص بالبحث عن نوعية العلاقة الرابطة بين حدث التعبيرو مدلول محتوى صياغته، ولا يخفى النفس البنيوي المكتنف لهذا التحديد أساسا . لهذه الضوابط سيقصر التفكير الأسلوبي نفسه على النص في حد ذاته، بعزل كل ما يتجاوزه من مقاييس تاريخية أو نفسية" (1).

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 32 .

و يضيف في موطن آخر معقبا على نزوع الأسلوبية إلى ترسم مبادئ الألسنية المنهجية بقوله: " هكذا تبين كيف أن المنطلقات المبدئية في التفكير الأسلوبي قد حددت منحى الأسلوبية نحو علم تحليلي تجريدي يرمي إلى إدراك الموضوعية في حقل إنساني عبر منهج عقلاني يكشف البصمات التي تجعل السلوك اللساني ذا مفارقات عمودية" (1).

و يخلص "المسدي " بعد استقرائه علاقة الأسلوبية بالألسنية على امتداد تاريخها في مسارها العمودي، إلى الإقرار بثبات هذا الاتصال و استحكامه، مذكرا في هذا الصدد بالندوات التي انعقدت و نادى بعضهم فيها بحق الأسلوبية في الانضمام إلى الحقول المعرفية العلمية و الالتحاق بصفها، واسما مـحاولاتها هذه بالجريئة و إن لم تفلح في الانفلات من طوق الألسنية و التحرر من أسرها، و من أبرز من أسهم في بلورة هذه النزعة بشقيها المزدوجين : الاستقلال و التبعية، "جاكوبسون" و "أريفي".

و ينتهي "صلاح فضل" إلى نتيجة مماثلة في القول باستحكام الصلة بين المبحثين و بأن هذا الارتباط، مشروع يحقق للأدب مكاسب لا تنكر فيقول : "الباحث الأسلوبي يأخذ ببعض ما يقوم به اللساني و اللساني يقوم ببعض ما يهم الأسلوبي، في مقاربته اللغة و في توضيح المكونات و الوظائف، دون أن يهتم بالخصائص المميزة و هذا ما يأخذ الأسلوبي به، مهملا الوقائع اللغوية غير الموظفة أسلوبيا " (2).

فإن حاد الأسلوب عن هذه المهمة و لم يأخذ بإ براز الوظائف التعبيرية المؤثرة، تحول النص إلى مجرد رسالة إخبارية، لا غنى فيها من الأوجه الجمالية و فقدت الدراسة الأسلوبية من ثم مبرر وجودها، و لئن تعذر حلول الأل سنية محل الأسلوبية و أن هذه بالرغم من مطامحها العريضة، لم توفق بعد في الاستقرار مبحثا جديرا، بأن نسند إليه صفة العلمية، فهي مرشحة لبلوغ هذه المكانة بالقدرة على تحقيقها متى استجابت لروح البحث العلمي، و أخذت بأسبابه و شروطه.

كما يلتقي " شكري عياد " مع ا لدارس في القول بأن إفادة الأسلوبية من مبادئ الألسنية وإجراءاتها أمر طبيعي، بل ضروري، حتى نأمن الأحكام الانطباعية، الاعتباطية الجائرة في كثير من الأحيان و نضمن للدراسة أقصى درجة من الانضباط المنهجي.

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 33 - 34.
(2) صلاح فضل : علم الأسلوب ، ص 115 .

لكنه أيضا يصر على ضرورة الفصل بينهما، و إلا انتفت خصوصية الأسلوبية و انعدم ما به تتحدد مبحثا متميزا عن الألسنية، موضحا أن هذه الأخيرة تدرس اللغة في ذاتها و لذاتها، بصرف النظر عن الوظائف التعب يرية للرسالة، متى كانت مادتها اللغة الطبيعية، فيما تلتقط الأسلوبية هذه الوظائف " المرتبطة بالتأثير الانفعالي في المتلقي و ما يترتب عليها من توصيلا شحنة انفعالية" (1).

لتحل مكانة الصدارة في مجال اهتماماتها، لكنه يستدرك مؤكدا أن هذه الشحنة لما كانت م علقة باسرتعمال مخصوص للغة وجب " النفاذ إليها من خلال النص " (1)، انطلاقا من تشك يلاته التعبيرية و أنماط انتظام عناصره اللغوية.

5- تداخل الأسلوبية و علم البلاغة

يندرج تناول هذا الموضوع ضمن ما يعرف عند "المسدي" بالتعريف بالخلف و المقصود، أي تعريف الأسلوبية بما ليست هي و بما يختص به غيرها دونها، حتى إذا أقصينا ما لا تكون به و ما ليست لها به صلة قرابة، أمكننا التعرف على حدها و تحديد و ضبط موقعها، إذ يقول " قد تبينت لنا بالمقارنة مجالات التقاطع و مجالات التماس بين الأسلوبية و كل من اللسانياتو البلاغة، فانتهينا إلى أنهما تمثلان محورين متعامدين طولا و عرضا و يأتي علم النحو ليجسم البعد الكوني الثالث و الأخير و هو بعد العمق، فيخرق حقول التداخل و التباعد ليصبح مركز ثقل، يستقطب جاذبية الأسلوبية على نوع ما من التناظر" (2).

و بهذه الطريقة – طريقة التناظر- يتم تحديد الحصيلة الإيبيستيمية لكل علم و استنادا إلى هذا المبدأ، اهتم بعض الدارسين العرب بدراسة الأسلوبية في علاقتها بعلم اللغة أولا، و هو ما تناولناه سابقا، و عمدنا في مرحلة ثانية إلى مقارنتها بالبلاغة، هذا الفن الضارب بجذوره العميقة في المعرفة الإنسانية بصفة عامة و في ا لعربية بوجه خ اص و هو ما يهمنا الوقوف عليه، و لا يفوتنا أن نشير إلى أن الدارسين في هذا المجال، لم يولوا لهذا الموضوع من العناية ما أولوه إلى المواضيع الأخرى، أو مقارنة بالمواضيع الأخرى ، إلا بعض الإشارات المتفرقة العابرة المبثوثة في مواطن متفرقة.

---

(1) شكري محمد عياد : الأسلوبية الحديثة ، فصول يناير ، 1981 ، ص 124 ، كذلك اللغة و الإبداع ، ص 60 -61.
(2) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 45 .

و الظاهر أنهم اتبعوا في طريقة معالجتهم الموضوع صفة العامية، كما يتبين أنهم وقفوا على الكليات دون الجزئيات، و ألحوا على المبادئ التأسيسية، دون العوامل العارضة أو الفوارق الجزئية القائمة بين المبحثين.

و من الدراسات العربية الحاسمة في القول بمثانة الصلة و استحكامها بين البلاغة و الأسلوبية، لعلها تلك التي عبر عنها "المسدي " بوضوح و صراحة في التعبير عن ذلك بقوله :

" و إذا تبنينا مسلمات الباحثين و المنظرين وجدناها تقرر أن الأسلوبية وليدة البلاغة ووريثها المباشر"(1).

مما برر إطلاق صفة البلاغة الجديدة عليها، و من وظائف البلا غة الهامة، هي الوظيفة الجمالية ومدارها التوفر على فن القول الجيد الراقي و البيان الناصع المشرق.

و هذه فيما يذكر "محمد عزام"، قيمة منشودة في مجتمع يؤمن بارتباط قيم الحق بقيم الجمال، و من معايير الجمال و قيمه المطلوبة رونق العبارة و طلاوة الديباجة و أناقة الصورة و التو شيج بالمحسنات البديعية.(2).

و هذا المعطى هو الذي يجعل الأسلوبية تتحدد بكونها البعد اللساني لظاهرة الأسلوب، طالم ا أن جوهر الأثر الأدبي لا يمكن النفاذ إليه، إلا عبر صياغاته الإبلاغية .(3).

ولعل صعوبة دراسة الأسلوبية أو الإلمام بها يكمن في موقعها و تعدد ميادينها و تد اخلها في حقول متعددة، مثل النقد الأدبي و علم البلاغة و اللسانيات و علم النص .....، و أخذ منحيين اثنين: منحى القاعدة العلمية الصلبة (المنهجية البنيوية)، و منح الاستقلال في إطار علم متكامل يتعامل مع العلوم الأخرى معاملة الند للند (علم الأسلوبية) (4).

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 44.
(2) محمد عزام : الأسلوبية منهجا نقديا ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1989 ، ص 39 .
(3) المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 32 .
(4) بسام قطوس : المدخل إلى مناهج النقد المعاصر ، ص 111.

6- البعد الإيبيستيمي لمفهوم الأسلوب

تطرق "المسدي" في فصل من فصوله " الأسلوبية و الأسلوب " عنوانه: " العلم وموضوعه" (1).

إلى تحديد التفكير الإيبيستيمي في علم الأسلوب، و ماهية الأسلوب في حد ذاته، والواقع أن تقديم اتجاه أسلوبي ما، يفترض فهما معينا للأسلوب و بالتالي عرض كل من "المسدي " و "صلاح فضل" إلى مفهوم الأسلوب، في الاستعمال الغربي القديم و مفهوم الكلمة في المعجم العربي، حسب ما ورد في اللسان يقصد به " السطر من النخيل و كل طريق ممتد .....فالأسلوب الطريق والوجه و المذهب، يقال أنتم في أسلوب سوء .....و الأسلوب الفن يقال : أخذ فلان في أساليب القول، أي في أفانين منه" (2).

و قد لفت بعض الدارسين العرب النظر، إلى أن لفظ "أسلوب" استقر مصطلحا يسمى نهجا في التأليف عدة قرون و أن مفهومه تطور في حدود معينة على امتداد تاريخ استعماله.

كما أن تعريف الأسلوب يعتبر اختيارا يجريه المتكلم ضمن احتمالات تعبيرية متعددة، و هو ما يؤكده "المسدي" من أن "فضلا عما تدخله القنوات البلاغية من مجازات ليست هي في منظور اللغوي، إلا انحرافات عن المعاني الوضعية الأولى و جملة ما ينتج من ذلك أن أي دال في لغة ما، لا بد أن تتعدد مدلولاته من سياق إلى آخر، و كذلك أي صورة ذهني ة مدلولة عليها، لا بد أنها واجدة أكثر من دال في نسيج نفس اللغة المعنية، و هكذا تترقى فرضية البحث شيئا فشيئا حتى تعمم المصادرة فتنسحب من الألفاظ مجردة إلى الصور و الرسالات الدلالية بعامة، فيقع الإقرار عندئذ بأن أي فكرة من الأفكار، يمكن إبلاغها بأشكال و كيفيات متنوعة، معنى ذلك أن نفس الشحنة الإخبارية يمكن سبكها في صياغة لسانية متعددة، و هذا المبدأ من شأنه أن ينفي وحدانية العلاقة بين البنية الخارجية للظاهرة اللغوية و أبنيتها القاعدية الحاملة للأسس الدلالية " (3) .

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 31.
(2) صلاح فضل : علم الأسلوب ، ص 73.
(3) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 48 .

لذلك فإن قيمة الأداة التعبيرية تختلف من سياق إلى آخر، فتكرير حرف الواو مثلا (واو العطف) على سبيل المثال في الخطاب القصصي، لا يؤدي نفس القي مة التعبيرية في الخطاب

الرومنسي، ففي الأول يجمع بين الأحداث القصصية و في الثاني يعرقل الخطاب و يبطل مشاعره الساخنة.

و حاصلة ذلك هو الانتقاء النحوي التأليفي و هو اختيار طرق مخصوصة في توليف الكلمات و اشتقاق الصيغ و سبكها في قوالب تشي بحضور المستعمل لها و تسبغ عليها مسحة من الذاتية، لذا أمكن كما يؤكد "المسدي" و يسانده في ذلك "سعد مصلوح" : " فقد لا يعسر عليهم إقرار القدرة على أن يميزوا ببعض الخبرة فقرة يسمعونها لأول مرة إن كانت للجاحظ، أم لأبي فرج أو كانت لطه حسين أم للمسعدي، أو كانت لابن خلدون أو غيره، و قد لا نجرؤ فنقول : إنهم يميزون آية " يسمعونها لأول مرة" أنها قرآن .(1).

و ما يمكن أن نخلص إليه هو أن، الآثار الواقعة بين الشكل و الدلالة و ما تثيره من إشكال، على أن المسألة تتعدى مجرد صياغة رياضية، تحدد بانتظام أشكالا تعبيرية في سجل واحد، بحيث يجوز أن نختار منها بحرية، دون أن يطرأ تغيير على ما يروم البحث إليه و ما نريد تأديته من معنى، ليوضع هذا المبدأ موضع شك و تساؤل و إذ يلامس الدارس الإشكال و يشارف إثارة الموضوع الشائك، المتمثل في معرفة ما إذا أمكن المحافظة على المدلول مع تغيير الدال، حتى يرسل إجابة واضحة، مستعملا في ذلك الدلالة الأسلوبية و اعتبارها جزءا من الكل، و يقول بصدد ذلك" سعد مصلوح " : " معالجة الأسلوب على انه اختيار ليس بالسهل .....، لأن التمييز بين السمات التي تعني نفس الدلالة و تلك التي تعني دلالات مختلفة، يبدو صعبا، كما أن التنبؤ بهذه الاختيارات يقع خارج متناول الباحث، بعد أن يكون النص قد مثل أمامه في صورته الأخيرة و تكون الاختيارات قد تم إجراؤها بالفعل "(2).

و المهم أن الأسلوب بوجهة النظر هذه " صورة خاصة بصاحبه تبين طريقة تفكيره و كيفية نظره للأشياء و تفسيره لها و طبيعة انفعالاته" (2) .

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 49 .
(2) سعد مصلوح : الأسلوب – دراسة لغوية إحصائية ، ط 1 ، دار الفكر العربي ، 1984 ، ص 26.

أو هو حسب تعبير" المسدي " فلسفة الذات في الوجود و نغم الشخصية حتى لكأنه إمضاؤها

و خاتمها بقوله : " و على هذا المستند عرف الأسلوب بأنه بصمات تحملها صياغة الخطاب، فتكون كالشهادة التي لا تمحى، و هذه الصورة صاغها " بروست" (proust) و أخذها عنه كل من "مونان" و "دي لوفر" ، و هي تكشف عمق التقدير في ارتباط الأسلوب بصاحبه عضويا، حتى لكأن الأسلوب "إمضاء" أو "خاتم" أو في اصطلاح عرف المؤسسات "طابع و توقيع" (1).

7- الأسلوبية التعبيرية

إذا كانت اللغة في مظهرها المجرد الخالي من كل شحنة تعبيرية، موضوع الدراسة الألسنية التي تسعى إلى استنباط قواعدها العامة و نظمها الشكلية المؤسسة لها، فالأسلوبية تنهض بمهمة دراسة الإنجاز المخصوص لهذا النظام اللغوي، كما يتجلى في خطاب المستعملين لها جماعات أو أفرادا .

و يستدل "فضل" على ذلك بقول زعيم هذا الاتجاه "بالي" : " إن مهمة العلم الرئيسية في تقديري يتمثل في البحث عن الأنماط التعبيرية التي تترجم في فترة معينة حركات فكر و شعور المتحدثين باللغة و دراسة التأثيرات العفوية الناجمة عن الأنماط عند السامعين و القراء "(2).

و يستوقف الدارس استعمال "بالي" كلمة (عفوي) لأهميتها عنده في نظرية الأسلوبية التعبيرية لما يترتب عليها من نتائج.

و "للمسدي" رأي مماثل في القول بأن الألسنية تنصرف إلى دراسة الخطاب غير المشحون بطاقة انفعالية و إلى ما كان " يكتسي ثوبا موضوعيا عقليا مطابقا جهد المستطاع للواقع ".(3).

كما تختص الأسلوبية التعبيرية بدراسة " الاستعمال العفوي الحامل للعواطف و الخلجات و كل الانفعالات و كل ما يكشف صورة الأنا" (3).

ناسبا إلى"بالي" قوله : " اللغة في الواقع تكشف كل م ظاهرها وجها فكريا و وجها عاطفيا ويتفاوت الوجهان كثافة، حسب ما للمتكلم من استعداد فطري، و حسب وسطه الاجتماعي و الحالة التي يكون فيها" (3).

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 56 .
(2) صلاح فضل: علم الأسلوب ، ص 17 .
(3) المسدي : أسلوبية و الأسلوب ، ص 36 .

8- الأسلوبية البنيوية

تعد الأسلوبية البنيوية واحدة من أهم النزعات التي عرفتها الأسلوبية في أطوارها، المتأخرة و غاية ما انتهى إليه البحث في إطارها في النص أسلوبيا .(1).

ليس معنى ذلك كما يبين لنا الدكتور "عبد السلام المسدي" أن الاتجاهين السابقين لم يحفلا بالنص، و لم يصرفا إليه عنايتهما فهو عند كليهما الموضوع الذي تنطلق منه الدراسة و عليه تتركز لكن الاختلاف يكمن في الغايات المقصودة و النتائج النهائية، فإذا كانت الأسلوبية التعبيرية تنشد في مرحلة ما أبحاثها القصوى في استجلاء أساليب التعبير و رسم خارطة للمكانات الأسلوبية والطاقات التعبيرية للغة ما، بناءا على حصر "بالي" "مدلول الأسلوب في تفجر الطاقات التعبيرية الكاملة في صميم اللغة" .(2).

و كانت الأسلوبية الذاتية- كما يرى أيضا "المسدي" – تستنطق أسلوب الخطاب لمشارفة بؤرة الخلق و بلوغ ال منطقة القصوى المجمعة و المولدة ل لصور و الطاقات الإبداعية، م علقة في ذلك الأسلوب بذات صاحبه.

" فإن الأسلوبية البنيوية، لا تعني بغير الخطاب موضوعا للدراسة و الغاية المقصودة للبحث"(3). مؤكدة بذلك وجودها و حدودها التي تعمل فيها، فيما يدعوه "جاكوبسون" الوظيفة الإنشائية، أي رد الاعتبار إلى النص في حد ذاته، حسب تعبير "المسدي" ،" فالنص إذن يؤخذ في حضوره لذاته و بذاته" (4).

و قد حضي تحديد هذه الوظيفة و التعريف بمفهوم الخطاب، كما أدركته هذه النزعة الأسلوبية، باهتمام الدارسين العرب المعنيين بالموضوع على نطاق واسع، فقد جاء في تعريف "محمد عزام" بمجال اهتمام النزعة المذكورة الموسومة عنده " بالأسلوبية الوظيفية" ما يلي : " هي ترى أساس الظاهرة الأسلوبية ليس فقط في اللغة و إنما هي أيضا في وظائفها و علاقاتها و انه لا يمكن تعريف الأسلوب خارج الخطاب اللغوي، من حي ث هو رسالة، أي كنص يقوم بوظائف إبلاغية" (5).

---

(1) حمادي صمود : الوجه و القفا – في تلازم التراث و الحداثة، الدار التونسية للنشر، تونس ، سنة 1988 ، ص 135 .
(2) عبد السلام المسدي : الأسلوب و الأسلوبية ، ص 85 .
(3) المرجع نفسه ، ص 84.
(4) المرجع نفسه ، ص 90 .
(5) محمد عزام : الأسلوبية منهجا نقديا، ص 110 .

فالدارس يضع الفواصل بين اتجاه يعلق الظاهرة الأسلوبية باللغة في ذاتها ، و هو حسب ما يفهم من السياق، اتجاه الأسلوبية التعبيرية و اتجاه يعلق الأثر الأسلوبي بعلاقات الوحدات اللغوية

المنتظمة في صلب الخطاب، و بذلك تتحدد وظيفة الأسلوبية البنيوية في استنطاق الخطاب في حد ذاته و الوقوف على خصائصه من البداية إلى النهاية.

و يتدقق هذا المسار أكثر عند "المسدي" بقوله معرفا حد الأسلوبية من الوجهة المعنية :

" سينشأ تعريف الأسلوب بالاعتماد على خصائص انتظام النص بنيويا" .(1).

و يؤكده في موطن آخر بالإفادة مما يصادر عليه بعض أعلام الأسلوبية البنيوية فيقول : " هذا العالم الأصغر (و المقصود به الخطاب) ، يحدده جهاز الروابط القائمة بين العناصر اللغوية والمتفاعلة مع قوانين انتظامها "(1).

و قد اهتم كل من "المسدي" و "صلاح فضل" بنسب متفاوتة بتوضيح أن النظام الدال من وجهة نظر "جاكوبسون" يختلف في التعبير العادي و المنثور، مق ارنة بالخطاب الأدبي عامة والشعري خاصة .

ففيما يبدو في النوع الأول عابرا عن المعنى المقصود تبليغه بحيث يختفي و يزول أثره، بمجرد القيام بعملية التلفظ، و لكنه في النوع الثاني يكتسب من الشحن، ما يجعله كثيفا مقصودا لذاته بصرف النظر عما يراد تبليغه من دلالات .

و النتيجة أن كلا الخطابين، ينتظمان في سجلين، كما يشير إليهما "المسدي " بقوله :

" مجرد تعبير الإنسان عن فكرة ما، شعرا بدل تعبيره عنها نثرا يعد تنبيها للمتلقي بأن النص فضلا عما يحمله من دلالات أولية تكون بنية رسالته، قد استحال في صياغته دالا متصلا بنظام إبلاغي آخر غير النظام الألسني البسيط" .(2).

و يورد "صلاح فضل" في السياق نفسه قولا لـ "ريفاتير" حاصله أن الأسلوب يتحدد بقصد صاحبه الأدبي و أنه يلفتنا "بصياغته و شكله" (3).

---

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 86 .
(2) المرجع نفسه ، ص 88 .
(3) صلاح فضل : علم الأسلوب ، ص 84.

و مع ذلك لم يقصي الدارسون العرب- إجمالا – المتلفظ من دائرة البحث الأسلوبي الهيكلي، "فالمسدي" يؤكد أن المتلفظ يظل بالرغم من تضاؤل دوره و انحصار قيمته "محددا للكلام، و الماسك بزمام المبادرة" (1).

(1) عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، ص 77 .

أهم ما نستخلصه من قراءتنا الأسلوبية، للدكتور "عبد السلام المسدي " أن الهم المعرفي الإيبيستيمولوجي ليس غائبا من المبحث الأسلوبي العربي و من أبرز ما يتجلى فيه هذا المظهر هو البحث المتعمق في الأسلوبية، و ماهية الأسلوب و في الوقت نفسه البحث في علاقة الأسلوبية بمجالات معرفية أخرى، و منها بوجه خاص الألسنية، و النظر في كيفية تعاملها مع مبادئها الإجرائية من ناحية، و من ناحية أخرى النظر في الأسس الجامعة للمبحث الأسلوبي، بشق جميع اتجاهاته عموديا و هو ما سعى إلى النهوض به " المسدي".

كما أن الدراسات الأسلوبية التي قام بها " المسدي" يغلب عليها الطابع التعليمي البيداغوجي، و ما يبرر ذلك هو تعريف القارئ العربي بالنظريات الحديثة الناشئة في تربة فكرية و ثقافية خصبة تتمثل في الاتصال بالفكر الغربي النقدي، بهضم المفاهيم و عرضها، و البحث في مرتكزاتها و أصولها المعرفية و العميقة في الوقت نفسه.

كما ركز الباحث على المنهج العلمي بالخروج من طور الحقيقة الذاتية إلى طور الحقيقة العلمية، على حد تعبيره، معتمدا في ذلك التجربة، في الكشف على المعارف، بالاستقراء و رصد النتائج، انطلاقا من مبدأ الشك و نسبية التسليم بالحقائق و رفض المسلمات، للوصول إلى ما تصح البرهنة عليه كليا، انطلاقا من الإطار الشامل- النظرية- للانتهاء إلى – العالم الأصغر – و هو الخطاب النصي المتداول.

و بالتالي تكون هذه السبل العلمية هي التي يتحدد على إثرها الأسلوب، و هي التي تشكل المقومات الأساسية للدراسات الأسلوبية لتحقيق الجوهر النقدي، الذي يختبر الكفاءة المعرفية لها، لأن الهاجس العلمي هو الذي يحرص على تفحص ظواهر الأسلوبية، و الأجهزة النظرية التي تقوم عليها، بالدقة و الإثبات، لتحقيق المسار الصحيح في البحث الحديث، و الإجابة عن الأسئلة التي تساور البلحث في اللغة عند مباشرة الظاهرة الأدبية.

و في النهاية نخلص إلى أن "المسدي " يسعى إلى إبراز المشروع الأسلوبي الحديث، ووجه للدراسات الأسلوبية العربية نقود تتمثل في محدودية نتائج بعض دراساتهم و اضطراب الرؤية العلمية لعدم الالتزام بالمنهج العلمي الصارم

و بالتالي ذكر بالأسس المنهجية التي بنيت عليها الأسلوبية و إخضاعها إلى التحليل العلمي الموضوعي.

المبحث الثانـي : الحقل البنيوي

I– مفاهيم البنيوية في الفكر العربي الحديث.

1- مفهوم البنية.

2- طبيعة العلاقة بين الجزء و الكل .

3- الاقتطاع و التركيب.

II– قيمة المنهج البنيوي في الفكر النقدي العربي.

- المعنى في البنيوية.

- ما حققته البنيوية.

- حدود البنيوية

I– *مفاهيم البنيوية في الفكر العربي الحديث*

ما يهمنا في هذا المجال هو استقراء الدراسات البنيوية لـ "عبد السلام المسدي " والوقوف على الجزئيات الواردة من خلال الدراسات الأخرى، المتضمنة كلمة " بنيوية" أو "بنائية" لمحاولة رصد التصور العام للبنيوية، فالبحث في هذه الأخيرة عند " المسدي" ينغلق ليستجلي البنية العميقة للبنيوية و الأسس المعرفية المحددة لأفقها، كيفما تعددت أشكالها و تباينت تجلياتها، لذلك وجود مصطلح البنية لم ينبثق من عدم و لا نزوة عابرة، إنما كان محور الدراسات الحديثة، استقت جل معارفها من المبادئ النظرية التي جاء بها "سوسور" و أقام بواسطتها

نظريته اللسانية التي كانت بمثابة الجذر المولد للاتجاهات البنيوية، " و ما كان يظن أنه كان يرسي قواعد منهج معرفي ستتجاوز آثاره سياج العلم اللغوي، فيكتسح علوم الإنسان، غازيا إياها غزو المنتصرين بلا عناء كبير، ذلك أنه و هو يقدم عصارة تصوراته النظرية في شأن هذه الآلة العجيبة التي هي الجهاز اللغوي لدى الكائن البشري" (1).

1 مفهوم البنية

إن البنية بمفهومها العام تأتلف من عناصر داخلية، تحكمها قوانين الكل، معنى ذلك أن البنية لا تضم عناصر خارجية منتمية إلى أنظمة أخرى، كما أن حكمها ليس حكم العناصر المجموع بعضها إلى بعض، أو المنعزل بعضها عن بعض، إنما المهم ما تنتظم العناصر عليه من علاقات و يشد بعضها إلى بعض من سمات خلافية .

و هذا ما يعبر عنه "المسدي" في مواطن عدة من دراساته، منها إشارته في معرض تحديده خصائص البنية في المستوى اللغوي من أن "كلا من المتكلم و السامع مضطر إلى أن يتجاوز ساعة المحاورة، الوجود الفردي لأجزاء الكلام، بحيث ينعدم وعيه بالجزء من حيث هو جزء، فلا يفكر في الكلمة بمفردها من خلال الجملة و لا في الحرف من خلال الكلمة و لا حتى في الجملة مستقلة عن سياقها التركيبي ".(2)

---

(1) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية – دراسة و نماذج ، دار الجنوب ، تونس ، 1995 ، ص 11 .
(2) المرجع نفسه ، ص 12 .

"و من الهين علينا أن نتخيل كيف تتعطل وظيفة الكلام لو أراد أحد طرفي المحاورة أن يتوسل إلى دلالة الخطاب من خلال كل جزء من أجزائه مستقلا عن سائر العناصر المكونة للسياق"(1).

معنى هذا كما يشرحه في هذا السياق أن عملية الخطاب تعتبر كل متصلا، لا مجال فيه للفصل بين أجزاء الكلام و إلا تعطلت عملية التواصل، فلا يمكن للمرء أن يحدث عملية دلالية جزئية في ذهنه، لا تساير السياق المتكون من عناصر خطابه.

2 طبيعة العلاقة بين الجزء و الكل

يشير "المسدي" إلى إشكالية العلاقة بين الجزء و الكل، مبينا أنها علاقة جدلية، فلم يعد السؤال المبسوط لمعرفة أيهما يحدد الآخر، محل جدل، فليس الكل كما شاع عند الجشطالت محددا للجزء، إذ يتفق أن تتغير صورة الكل بإمعاننا النظر في التفاصيل، و كما يستقيم ذلك طردا ينطبق عكسا، إذ يتغير فهمنا التفاصيل باكتمال نظرتنا إلى الصورة من جميع جوانبها.

و يؤكد في موطن آخر أنه لا معنى لوصل البنى الذرية في النص الأدبي و ضم بعضها إلى بعض، دون الاهتداء إلى الخيط الرابط بينهما، لتستوي في صورة متكاملة العناصر المفيدة، كماأن البنية كانت مو قوفة على البعد السا نكروني، أثار ذلك قضية الحدود الزمانية التي تتخذ معيارا محددا، في تحديد البنية، و في هذا الصدد يشير "صلاح فضل" إلى اختلاف وجوه السنكرونية الزمانية، و بالاستتباع انتظام البنى في مستويات مختلفة و تجليها في مظاهر متنوعة، فا لبنية الرياضية، لا تقتضي زمنا، كما لا يقتضي التحول من بنية إلى بنية زمنا، أما الوقائع و الأحداث فتخضع لعامل الزمن داخل البنية ذاتها و في تحولاتها.(2).

أما "المسدي" فيقر بالتعاقب الزمني كذلك و بأن الحدث لا يستقر على حال مطلقا، لكن الحديث عن بنية يقتضي لا محالة تصور " الزمن التقديري الذي هو موقف افتراضي يقوم على القيمة الاعتبارية للأشياء كما تعبر عنها اللغة".(3) . و بذلك يكون الزمن البنيوي زمنا افتراضيا مجردا.

---

(1) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية ، ص 13.

(2) صلاح فضل : نظرية البنائية في النقد الأدبي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1978 ، ص 190.

(3) عبد السلام المسدي: قضية البنيوية ، ص 14.

أما من منظور " ليفي ستراوس" ، فتتحدد البنية كما يبين " زكرياء إبراهيم " في قوله : " تحمل البنية أولا و قبل كل شيء طابع النسق أو النظام، فالبنية تتألف من عناصر يكون من شأن أي تحول يعرض للواحد منها أن يحدث تحولا في باقي العناصر" (1) .

فالظواهر الاجتماعية مثلا تدل على نوع من الفوضى و عدم الاتساق و مع ذلك إن نحن تفحصناها بدقة، تبين لنا وجود سلك رابط بينها جميعا، فالكشف عن دلالة الظواهر يكون بالكشف

عن الروابط التي تشد بعض عناصرها إلى بعض، و الاهتداء إلى بنيتها في أعماقها بإقامة حوار بينها و عقد صلات تنبثق منها .

و هو ما يعبر عنه "المسدي" بقوله: أن الأسلوبية " صرفت وجهتها نحو غاية عملية، مفادها اكتشاف الباطن المنسجم من خلال فوضى الظاهر" (2) .

دون أن يفترض ذلك بالضرورة الوعي بالبنية و لعل العكس هو الأصح، ذلك أن الوعي يقل و يتضاءل كلما كانت البنية مستقرة و الأحداث منتظمة، في سيرورة مطردة و يقول بصدد ذلك :

" أن البحث في الانسجام أو التناظر قد لا يبرز إلا عبر الوعي باختلال هذا أو ذاك".(2).

---

(1) زكرياء إبراهيم : مشكلة البنية ، دار سحنون ، تونس ، 1990 ، ص 31 .
(2) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية ، ص 35 .

3 -الاقتطاع و التركيب

تتأسس مهمة الدارس البنيوي على عمليتين متكاملتين هما: " الاقتطاع و التركيب"، حاصل الأولى عزل الأجزاء القائمة بوظيفة و اقتطاعها من الكل " للكشف عن كيفية قيامها بوظيفتها ومدى تأثيرها في الكل، ثم تركيب هذه الأجزاء بعد اكتشاف قوانين حركتها، في كل عضوي وتحليل القواعد المتصلة بإيحاءاتها و أنظمتها المختلفة. (1)

عن طريق هذه العملية المزدوجة يفصل من الموضوع أجزائه المتقاربة و يقرب الأجزاء المتباعدة، مبرزا بذلك حركته الداخلية و تقاطب أجزائه في وحدة كلية وظيفية.

و يولي "عبد السلام المسدي " لهذه العملية المزدوجة، المعروفة عنده بـ " التفكيك والتركيب" أهمية خاصة في مواطن عدة من دراسته، سنحاول الإلمام بها في نظرة تأليفية لإبراز نظرته إلى تعامل الدارس البنيوي مع موضوع مادته، المرتكزة إلى حد ما على الشعر.

فالدارس يؤكد أن البنيوية تحتكم إلى سلطة الحدث و واقع الأشياء، و تأبى الأخذ بالنزعة الذهنية القائمة على دراسة الوقائع انطلاقا من أحكام و مفاهيم قبلية .(2).

معتبرة - البنيوية- أن : " مضمون أي علم من العلوم إن هو إلا نسيج من الدوال، هي بمثابة العلامات التي تحيل إلى مدلولات و مجموع القرائن الرابطة بين هذه و تلك يمثل بنية ذلك العلم " (3).

و ليس الاحتكام إلى الدال في تجلياته الظاهرة أو الخفية – في تقدير الدارس – إلغاء لمبدأ السببية، إنما لا يعدو أنه تجديد في مفهومه و إعادة للنظر فيه، و ذلك بتفسير الحاضر بالحاضر، بعد أن كان الاتجاه يقضي بتفسير الحاضر بالغائب، أي أن العلة قائمة في المعلول، تستمد وجودها من حضروه.

و هو ما يشرحه الدارس بقوله: " تفسير الحاضر بالحاضر معناه أن ارتباط الأشياء بعضها ببعض، يعطي لوجودها المشترك وزنا إجرائيا، يقوم مقام السبب من نتيجته" .(4).

---

(1) صلاح فضل : نظرية البناية ، ص 206 .

(2) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية ، ص29 .

(3) المرجع نفسه ، ص 22.

(4) المرجع نفسه ، ص 30 .

و استتبع ذلك أنها نقضت فكرة المصادفة " نعني أنها ألغت من سجلها التفسيري مفهوم الصدفة، لأنه رديف للاعتباط، و الاعتباط مناقض في ذاته لكل عملية تفسيرية " .(1).

بالحركة نفسها التي نقضت بمقتضاها، الإطلاق ثم اكتسب توفرها على الدال قيمته، لأنه المعبر الوحيد المؤدي إلى المدلول بعد أن كان الدال معلولا بالمضمون.(2).

و كأنها بذلك " تجعل الرمز موجودا لذاته، أكثر مما هو موجود لغيره، أي المرموز إليه" .(3).

و يشير الدكتور "سمير سعيد حجازي " في مقولة "بارث" : " و لا يقتصر بارث على القول بأن اللغة الرمزية هي صميم الأثر الأدبي و هي التي تؤسس وجوده، بل هو يحاول أيضا أن يشرح لنا بنية هذا الرمز (أو الدال) على نحو ما يتجلى في صميم الأثر، مساعينا في ذلك بالنظرية

اللغوية في الدلالة عند سوسير، و هنا يقرر بارث أنه لا بد لنا من تفسير العلاقة بين الدال أو الرمز و المدلول، على اعتبار أنها صلة وثيقة غير قابلة للانفصال" .(4) .

فعند القول بأن الرمز أو العلامة اللغوية هي التي تحدد الجوهر في العمل الأدبي، دليل على أن المنهج البنيوي، همه الوحيد هو استنباط العلاقات التي تعثر على حقل الانسجام، انطلاقا من الأجزاء للكشف عن الكل الصوري للنص الأدبي.

و يقول "المسدي" في ذلك: " إن البنيوية إذا طبقت على النص الأدبي، فإنها تنشد النفاذ عبر مكوناته إلى الصورة البيانية للكل عبر الأجزاء، ذلك أن البنيوي و إن التصق بنص النص، واتخذ بنيته الشكلية حقلا اختباري، فإن هاجسه الأكبر هو استنباط علاقات تخفى على الحس الظاهر، و اشتقاق قراء تتوازى ثاوية وراء ملفوظ النص، فالبنيوية لا تتقيد بشبكة الدوال، على حساب نسيج المدلولات، و لا ترتهن بمنظار المعنى على حساب ضفيرة الأشكال، بل أنها لا تتعلق تعلقا مطلقا بقرائن الدال مع المدلول، و إنما همها الأوكد أن تعثر على نمط من الانسجام يمكنها أن تخرجه على هيئة تشكيل صوري".(5).

---

(1) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية ، ص 31 .

(2) المرجع نفسه ، ص 36.

(3) المرجع نفسه ، ص 37 .

(4) سمير سعيد حجازي : مناهج النقد الأدبي المعاصر – بين النظرية و التطبيق، ط 1 ، دار الآفاق العربية ، القاهرة، 2007 ، ص 50.

(5) عبد السلام المسدي : في آليات النقد الأدبي – مفاتيح ، ص 71.

و إذا ما استقام ذلك و أضحى الانطلاق من الظواهر البادية، لاكتشاف مقوماتها الباطنية، بمثابة المسلمة النظرية ، انتقلنا إلى المرحلة الإخبارية التي فيها "يجمع بين البساطة الظاهرة والدقة المستترة" (1).

و المتمثلة في " التفكيك و التركيب" ، تفكيك الموضوع إلى أجزائه المكونة له، ثم إعادة تنظيمها في فضاء يختلف عن فضائها الأصلي، لإبراز طاقتها الوظيفية، " و عملية إعادة التركيب ليست واحدة بالضرورة، و إنما يمكن أن تتعدد و تتنوع، فتفضي إلى هندسات معمارية جديدة للواقع المدروس أو للظاهرة المستجلاة " .(2) .

و يبرز الدارس ثراء هذا المنهج في التحليل و خصوبته فيقول : " و في كل مرة يعمل المنهج البنيوي على إثبات أن الأجزاء إذا تركبت وفقا لثنائيات محددة، أثمرت نظاما نسقيا هو إحدى الصور المنعكسة على مرآة البنية، و من هذه الثنائيات نبع مجال خصب للرياضة الذهنية، بحثا عن تطابق أو تقابل، و عن تماثل أو تباين، و عن تناظر أو تصاقب، للوقوف من خلال ذلك على تواؤم أو مفارقة- كل هذا في مد و جزر بين متعة الظاهر عندما يشي بالمخفي، و سحر المستتر عندما يتكشف عبر السطح البادي، و بديهي أن المنهج – أيا كان مسلكه – إذا تحول إلى أداة طيعة تريك ما لا تراه بدونها، أخذك بجاذبيته فانسبت إليه مقتنعا أو مستسلما" (2).

إلا أن الدارس يعبر عن موقف الرفض إلى ما آل إليه منح التفكيك إلى أجزاء من تضحية بالكل في سبيل الجزء، و من إهدار للطاقة في الكشف، و للاستقصاء دون الضم و التأليف، لإبراز كيفية اشتغال الكل و تأديته وظيفته، فإذا الصورة الشاملة تتفتت خلايا بنيوية متناثرة، و السبب في تقدير الدارس مرده إلى أن هؤلاء الدارسين البنيويين فاتهم أن عملية شرح النص:

---

(1) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية ، ص 19.

(2) المرجع نفسه ، ص 20 .

" عملية تبلغ منتهاها حالما يتم إنجاز التجريد الدلالي المتدر ج من البنى الذرية، إلى البؤرة الأم، بحيث يقع الإمساك بزمام المجامع المعنوية في مفهوم متفرد أوحد، و هذا المد و الجزر بين البنية الدلالية الكلية، و النوى الذ رية المتناثرة في دائرة الحقل المفهومي يوفر بيد الشارح جهازا مطاطيا، يسمح بإعطاء مادة النص مستندات متنوعة تبدو في الوهلة الأولى تزيدا على نص النص و لكنها تحت عدسة المجهر الدلالي تتجلى بمثا بة العناصر الكامنة التي تم استخراجها من حيز التضمين إلى حيز التصريح"(1).

و بالتالي نفهم أن التعرف على بنية النص الأدبي، لا تتم إلا من خلال إضاءة أنساقها اللغوية و البحث في الكيفية التي تتمايز بها السمات البنائية داخل الأثر الأدبي، و ضرورة تجاوز المعاني المباشرة، للوصول إلى المعاني الخفية، لتصبح هذه لمعاني مصرح بها في حيز التصريح

كما قال الباحث لفهم المعاني الرمزية الخاصة التي تكمن وراء بنيات الأثر، و يدعم ذلك "حجازي" بقوله: " العلاقة بين اللغة و الأثر الأدبي، كانت موضوع دراسة موسعة، بفضل جهود "رولان بارث" و تلاميذه و جهود عدد آخر من الباحثين، في المدرسة العليا للعلوم الإنس انية بباريس، ذلك أنهم قد أكدوا على أهمي ة تحليل العلاقة بين لغة الأثر والأثر نفسه، على ضوء الحقائق الأنتروبولوجية و اللغوية، بقصد الكشف عن ال معاني الخفية للأثر و التخلي عن الفهم الجمالي المباشر" (2).

يفسر لنا الباحث انه ليس بوسعنا قراءة البنيات و ا لوقوف عليها إلا استنادا إلى آثار ها، فالبنيوية تختلف عن المذاهب الفكرية السائدة، من حيث أنها لا تحمل مضمونا فكريا و لا تتقيد باتجاه إيديولوجي، فهي منهج و ليست فلسفة و طريقة لا إيديولوجية تهتم بتحليل الظواهر في مستوياتها المختلفة و تحاول القبض على العلاقات و الأنساق السائدة فيها .

فعند حديثنا عن البنيوية، لا نتحدث عنها كما نتحدث عن الوجودية أو الوضعية، لأنها منهج لا يحتمل الوضع و الوجود.

---

(1) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية ، ص 67 .
(2) حجازي : مناهج النقد الأدبي المعاصر ، ص 47 .

II- قيمة المنهج البنيوي في الفكر النقدي العربي

إن بلوغ معنى النص ظل هاجسا يشغل الدارس و يستقطب اهتمامه إلى درجة كبيرة، و لعل البنيوية فيما تتأسس عليه من مبادئ، تكون هي الكفيلة بلفت النظر في تناول مظاهره – النص – من الداخل.

و يستشهد على ذلك "المسدي" فيقول: " إن الناقد البنيوي تودوروف يحدد النص الأدبي من الداخل و من خلال العلاقات الباطنية الموجودة بين الكلمات الصانعة و المبنية للعمل الأدبي" (1).

إن أول ما يستوقفنا عند إلقاء نظرة إجمالية على موقف "المسدي" من هذا الموضوع – موضوع البنيوية- هو الكيفية التي يستلهم بها الباحث المفاهيم البنيوية في أعماقها، في استجلاء مكامن النص الأدبي الذي ظل عند دارسيها شغلهم الشاغل.

و بالتالي سنقف في معالجة الموضوع عند الدارس على ثلاثة مواقف إجمالا، أما الموقف الأول يقوم على وصف موضوعي لكيفية مقاربة البنيوية المعنى، و يتمثل الثاني في استكشاف ما حققته البنيوية، في مباشرة النص، و الكشف عن شروحاته، و يسلمنا هذا إلى الموقف الثالث و هو وضع البنيوية موضع سؤال و إبداء الشك في جدارتها أن تتبوأ المنزلة المثلى.

الموقف الأول:

- المعنى في البنيوية

لا يعرض "المسدي"لهذا الموضوع بابا أو فصلا مستقلا، و لكنه يتعرض إليه في سياقات بحوثه في شكل إجمالي، و ما يؤول إليه في تحليلاته هو تفكيك الكل إلى عناصره المكونة له، وإعادة تشكيلها في نظام غير نظامها الأول.

فالبنيوية عنده أحلت الوظيفة فيها محل المعنى، بحكم أن الأثر الأدبي يكتسب قيمته من كيفية صياغته للمواد العينية المتوفرة لديه.

لذلك قال بأن " إدراك الواقع في باطنه يمكنه أن ينفصل عن إدراك الواقع في ظاهره، وذلك بالاستناد إلى أن المخفي من الشيء هو بنيته " (2).

---

(1) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية ، ص 100 .

(2) المرجع نفسه ، ص 31.

لذلك فهو يعكس عقلية مبرزا فيها بأن صياغة المادة التي صنع فيها الأثر في صورة شكلية، تقودنا إلى مرتبة جديدة، وهي المرتبة الوظيفية التي تربط الشيء الظاهر بمعنوياته الخفية، التي يمكن ان تظهر على السطح البادي، بإدراك نوعي ، فقال: " و أن هذه البنية تحكمها نواميس يمكن أن تتجلى على السطح و يمكن أن تظل في حيز الكمون متوارية في قلعة الخفاء، لا يجلوها إلا إدراك نوعي يخرج عن الإدراك المألوف" (1).

ففهم الإنسان للظواهر الخارجية يكون بحسب الإدراك لمكامنها، فالاستعمال اللغوي نوعان، أما النوع الأول فهو ذلك النوع الذي يهدف إلى الاستعمال لتحقيق التواصل، و هذا النوع

يعتبر اللغة و ينظر إليها على أنها آلة تعبيرية لتحقيق الأغراض التواصلية، أما النوع الثاني هو الاستطلاع الداخلي للغة في بنياتها المختلفة، و في هذه الحالة يتم الانتقال من موقف إدراكي أول، إلى موقف إدراكي مغاير، فالبنيوية ليست فلسفة و لكنها استقراء للوجود.

و يقول الدكتور "محمد أديوان" في كتابه النص و المنهج: " يحدد أبو ديب البنيوية تحديدا يخرجها عن الأعراف الفلسفية، حيث يقول : ليست البنيوية فلسفة، لكنها طريقة في الرؤية و منهجا في معاينة الوجود" (2).

و يضيف "المسدي" قائلا: " للأشياء صورة أخرى تكسوها ظلال ناجمة عن طريقة تعبيرنا عنها، لأن أداة التواصل مهما حرصنا على أن تكون شفافة أو محايدة، تظل دائما عامل تأثير بما تحمله من شحنات متنوعة" (3).

فالمعاني متعددة لا حصر لها، و ما أحدثته البنيوية هو الكف عن البحث في المعاني في كلياتها وتأويلاتها ، و الاهتمام بالشكل الصانع لهذا المعنى، فالمهم ليس هو بلوغ المعنى النهائي، إنما حصر الحدود القصوى في الإيحاءات و استنطاقها على كشف طاقتها في إنتاج المعنى .

---

(1) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية ، ص 31.
(2) محمد أديوان : النص و المنهج ، ط 1 ، دار الأمان ، الرباط ، 2006 ، ص 113 .
(3) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية ، ص 32 .

فالأشياء كما يقول: " تفقد 'براءتها' المثلى بمجرد انسيابها على لسان مستعملها، و مما لا مراء فيه أن إدراك الإنسان الواحد للظاهرة الواحدة ، قد يتلون بألوان متغايرة، بحسب الوصف اللغوي الذي يأتيه سواء من متحدثين مختلفين أو حتى من متحدث واحد في ظرفين متباينين" (1).

فالدخول في اللعبة البنائية هو دخول في اللعبة الدلالية و إبراز لإمكانات تحققها في تعددها اللانهائي، فالمهم ليس بلوغ المعنى النهائي للنص، أثناء استنطاق طاقته على إنتاج المعنى، و يدعم ذلك "صلاح فضل" ليقول: " إذا كان كل عصر يظن أنه قد أمسك بالمعنى القانوني الدقيق لهذا

الأثر أو ذاك، فإنه يكفي أن نوسع من منظورنا التاريخي كي ندرك سذاجة هذا الظن و نعدل عن المعنى المنفرد إلى المعنى المتعدد و عن الأثر المغلق إلى الأثر المنفتح ".(2).

هكذا تقاس جودة العمل الأدبي بقدرته على الانفتاح على المعنى المتعدد و قابليته لاحتواء أكبر قدر من الدلالة، و يظل مع ذلك ساكتا عن أسراره منطويا على مكنوناته، لا يتاح لكل عصر إلا "الكشف عن مقدار يكثر أو يقل بحسب ما تهيئه له المعارف من أدوات تشريح لطاقته على التجدد و التفجر اللانهائيين" .(2).

لذلك ألح "المسدي" على فكرة النظام التي تقوم على مبدأ التماسك في سلسلة الأحداث، في تقرير الحقائق المعرفية لتحقيق الانسجام في النص، الذي أساسه المنطق الافتراضي ، الذي يعتمد الفكر في تحديد الحقل المعرفي العلمي، المبرهن عليه حسب ما تفرضه المادة في خدمة الصورة، و الصورة في خدمة الوظيفة.

و نعبر عن ذلك بقوله: " و عصارة الأمر في هذا الغرض، أن الفكر البنيوي قد جعل المادة في خدمة الصورة، و الصورة في خدمة الوظيفة، و هذه من الحقائق التي يغفل الناسفون للفكرة البنيوية، و يتغافل عنها المنتصرون لها، لأن حلقة الربط بين البنية و الوظيفة، قلما توضحت لدى هؤلاء و أولئك، لاحتجاب الأنموذج اللغوي، عن حقل تنظير اتهم " (3).

---

(1) عبد السلام المسدي: قضية البنيوية ، ص 32.

(2) صلاح فضل : نظرية البنائية ، ص 299 .

(3) المسدي : قضية البنيوية، ص 34 .

الموقف الثاني
- ما حققته البنيوية

إن البنيوية بمختلف اتجاهاتها و على تباين مواقعها ناهضت التجريبية، و سعت إلى تفسير التجربة انطلاقا من مبادئ تجريدية، بإقامتها للظواهر المدروسة أبنية لها، من الطاقة على التفسير و إبراز الآليات الخفية، المتحكمة في هذه الظواهر و تحديد وظائفها، ما جعلها تتبوأ مرتبة المنهج العلمي، المؤهل لأن ينهض بأعباء الفكر الحديث، في مختلف مجالات نشاطه و أن يحقق " التحليل

البنائي في ميدان الأنثروبولوجية إلى نوع من الجدول الرياضي أو المصفوفة الجبرية التي تعبر عن كل التحولات و التجمعات الممكنة في الذهن البشري اللاشعوري" (1).

فهذا البناء الذي يتحدث عنه هو بناء ذكي، لا يتم الكشف عنه إلا عقليا، فهو لا يوجد على السطح الخارجي كظاهرة، إلا على مستوى البراء العقلي.

" و هكذا يؤكد 'ستراوس' الطبيعة المستقلة للذهن البشري على نحو يكاد يبدو معه فيلسوفا مثاليا، فهو يتكلم كما لو كان لدى الذهن استقلال خاص يجعله يمارس عمله بطريقة لا تعتمد على أي فرد أو جماعة إنسانية بعينها " (1).

و حتى الفيلسوف الماركسي " ألتوسير" بالرغم من اختلاف موقعه عن أقطاب البنيوية وكذا "كلود ليفي ستراوس" لكنهما يشاركان في مناهضة التجريبية التي تقوم على أساس الانطلاق من الواقع لتجريده، بإزاحة العناصر المتداخلة الزائدة التي تحجب الحقيقة.

كما أن البنيوية لا تكتفي بوضع الكل في البداية، دون تحديد الخصا ئص الكامنة فيه من الوجهة الداخلية، و بذلك نقلت البنيوية الفكر البشري إلى مرحلة علمية لم تشهدها البشرية في جل اختباراتها .

فالبنيوية ساندت التجريبية و لكنها ناقضت من وجهة نظر "حسين الواد" التفكير المثالي القائم على عزل الظواهر بعضها عن بعض و هي في حالة " هدوء تام و ثابت" ، يبحث فيها المفكر عن " المنابع الصرفية و المناهل العذبة " ، و على القول بأسبقية الفكر و اعتبار الكون عائدا على بدئه.

---

(1) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية ، ص 82 .

و يفسر "المسدي" ذلك بقوله: " لأن الأشياء حسبه في تكرر أزلي، فإذا اعترف المفكر المثالي بالتطور فإنه لا يعترف به إلا على انه زيادة أو نقصان أي أنه انتقال "من" وضع ما "إلى" وضع آخر، أما المؤثرات المفضية إلى الزيادة أو النقصان، فإنما هي أسباب خارجة عن الأشياء، تتسلط عليها من "الخارج" لتؤثر فيها" (1).

و من مظاهر هذا التكرار وجود قيم الخير و الجمال و الحق، واستبدلت بذلك طريقة أخرى في التعامل مع الأشياء، تقوم على معالجة الظاهرة المدروسة دون أفكار مسبقة، و على إبراز النظام الداخلي و قواعد تأديته لوظيفته.

ثم يشير كذلك "المسدي" في هذا الكتاب إلى "الطرابلسي" و "صمود" و "مصطفى ناصف"، لإبراز بعض المواقف القائمة على ما حققته البنيوية من نقلة نوعية في مباشرة النصوص الأدبية.

فاهتم "الطرابلسي" في مقاله الحامل عنوان "في منهجية الدراسة الأسلوبية" ، بتقويم هذا المنهج و إبراز مدى قدرته على إنتاج معرفة دقيقة بالنص، بإتباعه المنهج العلمي، فإن هذا التقويم ينطبق في تقديرنا على البنيوية و يصدق عليها لانتحائه في دراساته التطبيقية جميعا منهجا أسلوبيا بنيويا و إضافة إلى دعوته إلى وجوب الملاءمة بين التنظير و التطبيق في الأسلوبية و إفادة أحدهما من الآخر، لتكتمل العدة، و يستقيم المنهج أداة علمية صالحة للاختبار الأدبي.

فهو يسلم بجدواها في تناول الظاهرة الأدبية متى زاوج الدارس بين المعرفة اللغوية الجيدة التي تتيح له تشريح النص و الكشف عن دقائقه و عبر عن ذلك في موطن من مقامه " في منهجية الدراسة الأسلوبية" يقول: " هذه الثقافة اللغوية الأدبية الذوقية أي المزدوجة، هي التي تمكن – إذا شفعت بالممارسة المتواصلة – من التعرف إلى الظاهرة اللغوية، و من تقليبها في وجوهها المختلفة و من التمييز بينها إذا كانت ذات طاقة إخباري ة مجردة و بينها إذا كانت ذات طاقة أسلوبية خلاقة و هي التي تمكن من التمييز بين الظاهرة اللغوية ذات طاقة الأسلوبية الشائعة في جملة من النصوص و بين الظاهرة اللغوية ذات الطاقة الأسلوبية المخصوصة بها في نص معين " (2) .

---

(1) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية، ص 102 .

(2) المرجع نفسه ، ص 156 .

بحيث يوجز كل ذلك في جملة مفيدة ليقول:" إنها – بعبارة موجزة – تعين ما نسميه بوظيفية الظاهرة اللغوية، و على تحرير وظيفة الظاهرة اللغوية يتوقف المنهج السليم في الدراسة الأسلوبية أولا" (1).

و بالتالي فإن الثقافة الأدبية الذوقية تمنع عملية النقد من الاستحالة إلى مجرد تسجيل للظواهر اللغوية و تجلو من النص طاقته الإيحائية الخلاقة.

و باجتماع الوظيفتين نخرج من مجال الانطباع الذاتي الحاصل من القراءة الأولى للنص، مما يدعم حركة ثانية تكسبنا فكرة التطلع إلى ضرب آخر يمكننا من تجاوز القراءة الأولى و تجاوز الأحكام الاعتباطية إلى أحكام أخرى تستند إلى العلمية في البحث و التقدير .

كما يخصص "حمادي صمود " فصلا عنوانه " المناهج اللغوية في دراسة الظاهرة الأدبية " مؤكدا أن توظيف الظاهرة اللغوية في دراسة الأدب ليست جديدة و الدليل على ذلك إشهار نقاد العرب القدماء في جهازهم المفهومي النقدي الذي مثلته البلاغة بالبعد اللغوي في الدراسة .

و مع ذلك يظل الفرق بين الطريقتين القديمة و الحديثة في استعمال اللغة في حد متسع، ذلك أن ما طرأ منذ ما يقرب من قرن من تحول جوهري في المعرفة الإنسانية انقلب بمقتضاه فهم الإنسان لعلاقته باللغة، كيف يؤثر و يتأثر بها، بالفهم العميق لها و الكشف عما يكتنفها من غموض و تغير تبعا لذلك مفهوم النص الأدبي تغيرا جذريا، فأعاد النقد الحديث النظر في المسلمات التي كان النقاد يأخذون بها أنفسهم في معالجة النص، و من أهمها الاحتكام إلى الذوق و إلى قيم الجمال و الحق و الخير المرتبطة بالآداب، و دفع بالنقد إلى مسالك جديدة، أهم خصائصها علمنة المنهج بالنظر في النص الأدبي- مهما اختلفت وجهات النظر و تعددت التيارات و المنطلقات المذهبية- باعتباره كائنا مصنوعا من كلام.

و بصفته هذه وجب التوسل بما يتوسل به الألسني من معطيات في معالجة اللغة والإجراءات المتخذة في صدد ذلك .

---

(1) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية ، ص 156 .

و بالتالي حقق النقد الأدبي مكاسب ما كان لها أن تتحقق في ظل مناهج النقد التقليدية من أهمها كما قال: " و من أهم ذلك وقوفها على بعض أسس عملية الخلق الفني، بإبرازها أهمية بنية النص و نظامه اللغوي و الكيفيات التي تتماسك بواسطتها الوحدات داخل هذا النظام".(1)

كما أسهم في إثراء الجهاز المفهومي و إكسابه إمكانيات لا يتردد الدارس في نعتها بالثورية في المباشرة النقدية فأخصب السجل النقدي مفهوم الاختيار و العدول و المعنى المصاحب والسياق الأدبي و القراءة و تأويلاتها، و بذلك تعددت وظائف النص و تداخلت و أصبحت الوظيفة الأدبية أو الأسلوبية:

" معطى يستعصي على التحديد و الضبط، إذ هو –الأسلوب – نتاج عمليات معقدة متعاضلة لا تنفك إحداها عن الأخرى إلا عن صعوبة نادرة و مخا ض عسير، فهو طريقة الكاتب في الانتقال بفنه من الانفعالي الفيزيولوجي و اللذة الحسية إلى تشكل علامي ظواهري يستقطب دلالة الحضارة و يصل الكون بالتاريخ، إنه مسار في اتجاهين ما بين 'النص الوهم' و 'النص الظاهرة' في المعنى الواسع لكلمة النص" (1).

فالدارس يعبر عن إ يمانه العميق بضرورة استثمار هذه المراجعات المنهجية و ما أفرزته من مقولات، أصبحت معالم بارزة في المعرفة الإنسانية اليوم، و الهدف من ذلك هو الطموح إلى علاوة النقد الأدبي ووصوله إلى مكانة لا تقل عن الاختصاصات الأخرى من الدقة و الصرامة في البحث، تعاملا مع التقنيات المستخدمة في إقامة النص .

فالقراءة النقدية المستندة إلى المعرفة بهيكلية النص الأدبي هي إذن قراءة تبغي إعانةالقارئ على ممارسة لذة القراءة من موقع المعرفة، بفنية الكتابة و أسرارها، و هي معرفة لا بد من التوفر عليها و التحكم فيها حتى نكون في تعاملنا مع النص على بينة بما يثيره من إشكالات فنية.

و لكن الدارس يثير سؤالا مفاده ما إذا كان بوسع الدراسة اللغوية- في البنيوية- إخضاع النص ' لأحكام موضوعية' ، أي الكشف عن القيمة الأدبية بتحليلها تحليلا علميا .

و الحال أن هذا التساؤل المطروح ستكون المباشرة إلى الإجابة عليه في الموقف الثالث من البنيوية .

---

(1) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية ، ص 116 .

الموقف الثالث

- حدود البنيوية

إن هذا التساؤل الوارد لها حققته الآلة اللسانية في دراسة الأدب، يتلخص حسب الباحث في الصعوبة لتحقيق البنيوية أو الأ سلوبية الكشف عن آليات النص، في إنتاج المعنى، و ما حققته

البنيوية من مكاسب في مباشرة النصوص بتجردها إلى دراستها و "إزاحتها ما كان يحيط بالأدب من هالة قداسية كثيرا ما كانت تقوم عائقا حيال الرؤية الموضوعية المتأنية" .(1).

و تحويلها مهمة ال ناقد من شاهد ووسيط بين المؤلف و القارئ، إلى محلل موضوعي وباحث مستكشف بنى النص الداخلية يخلص إلى إبراز حدودها.

و يتلخص ما يوجهه إليها من انتقاد في نقاط ثلاث:

أولا: أن عملية النقد البنيوي بما آلت إليه من بحث عن نظم العلاقات بين الدوال و الرموز أضحت تجري في حلقة ضيقة لا تكاد تتعدى حدود الباحثين المختصين.

ثانيا: أن عملية الإحصاء و ما يجري مجراها من ضبط لرسوم بيانية و إقامة " تشكيلات هندسية" .(2)

غدت مجرد بحث تجريدي شكلي مقصود لذاته دون أن يحقق النتائج المرجوة في الكشف عن أدبية النص و إن لم ينكر فضلها في نحت لغة ثانية تفيد النقد و تسهم في "ترويضه على المهارات التواصلية المختلفة مما يترسب معه في الذهن مزيج علامي يحدث وقعا لا يحدثه النسق اللغوي المتفرد ".(3) .

أما المأخذ الثالث : فهو متفرع من السابق و مترتب عليه، فحاصله عدم توصل البنيوية إلى السيطرة على الدلالة و محاصرة الأبعاد التي تجعل من النص يتجاوز كونه مجرد نسيج مصنوع من كلام، إلى بناء لغوي محقق للوظيفة التأثيرية، و هو ما يرتد إلى القول بفشلها في تحويل البيان الموضوعي إلى حكم بالقيمة. (4).

---

(1) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية، ص 55.

(2) المرجع نفسه ، ص 59.

(3) المرجع نفسه ، ص 59 – 60.

(4) المرجع نفسه ، ص 57.

و أكثر الدارسين المهتمين لموضوع البنيوية و المؤيدين لها، من هذه الوجهة، مساندة لموقف "المسدي" هو "مصطفى ناصف" في كتابيه 'الوجه الغائب' و 'اللغة و التفسير و التواصل' و بالرغم من اتساع المادة المعبرة عن هذا الموقف و امتداد أطرافها إلى حدود بعيدة ، فهو يكاد ينتظم في فكرة واحدة مؤداها، أن البنيوية حصرت النص في قوالب جامدة و حكمت على الإنسان و سبيله إلى التعبير عن حضوره و تفكيره و تاريخه، بالموت و الفناء.(1).

و"شكري عياد" في انتقاده للبنيوية بعد أن عرف ببعض مبادئها، و نوه بما ا ستحدثته من مفاهيم في قراءة النص الأدبي بوجه خاص، على إهمالها القيمة الأدبية و تسويتها الآثار جميعا على صعيد واحد، قال بصدد ذلك : " البنيوية اليوم مذهب في المعرفة و علم النفس و علم الاجتماع، أي فيما يسمى مرة بالعلوم الاجتماعية و مرة بالعلوم الإنسانية، مع أن منشأها في علم اللسان الحديث " .(2) فهي تقع في تقدير الدارس في تناقض مع نفسها، لإعلانها أن لكل عمل أدبي قانونه الخاص.

أما "سعيد الغانمي" فيلتزم في موقفه من البنيوية الحياد مكتفيا باستعراض ط ائفة من المفكرين الغربيين، كالموقف الوجودي الذي يتبناه " سارتر" و يخلص في ذلك إلى أنها تلغي الجانب الجدلي و دور التاريخ في صنع البنى، إضافة إلى الموقف التفكيكي الذي تزعمه "دريدا"، و جماعه أن البنيوية لم تنتج من ميتافيزيقا الحضور، بتفكيكه البنية و تمزيقها و نفي وجودها و المركز عنده خارج النص أما من الداخل فهو اللامركز، و بالتالي تبدأ اللعبة بين المركز و اللامركز .

و في الأخير يكون "للمسدي" من كل ما سبق في مجال البنيوية موقف ينحو - إجمالا- وجهة الرفض لبعض مرتكزاتها - البنيوية – المنهجية، الممارسة عند الدا رسين العرب، و ما تنطوي عليه من خلفيات إيديولوجية، إلا أنه لم ينفي في ذلك اعترافه بمزاياها في تجديد النظرة إلى الأدب.

---

(1) شكري محمد عياد : بين الفلسفة و النقد ، منشورات أصداء الكتاب، القاهرة ، 1990، ص 91.

(2) عبد السلام المسدي : قضية البنيوية ، ص 93.

المبحث الأول

القراءات الشعرية عند المسدي

- ***القراءات الشعرية***

لقد صدر للباحث في هذا المجال قراءات مع "الشابي" و "المتنبي" و "الجاحظ" و "ابن خلدون"، اتخذها كنماذج في البحث النقدي، هدفه في ذلك "مقابض الإدراك سواء كان م حطها القول الأدبي أو الخطاب النقدي أو الكلام المعرفي" .(1)، و "استلهام روح القراءة النصية".

و في محاولة مستحدثة بين ذات الشاعر و موضوع النص يوضح لنا دور النقد الأدبي، في الوقوف على جماليات النصوص و في تدريبنا على تذوق الجمالي منها، لكن صعوبة اللغة الشعرية بالمقارنة مع الأعمال النثرية توحي وحدها بأنه من الضروري قراءة النصوص الشعرية

بصورة أقل طبيعية عن قراءة الأعمال النثرية، لتقريب "البنية اللسانية" و هي - الدلالة – من "الإدراك التشكيلي" و هو الشعر، على حد تعبيره:

" و كان طبيعيا أن نحول إلى جانب التحليل الد لالي على التشكيل الصوري فأودعناه رسوما بيانية إن لم تكن غاية للبحث فلا أقل من أن نوظفها توظيفا يقرب البنية اللسانية من الإدراك التشكيلي للمجردات الصورية" .(2)

لذلك ثمة نوع من النظريات، يكمن دوره في تسهيل الجهد المبذول في قراءة تلك النصوص، لتبدو سهلة و طبيع ية، فالنظرية هي تعريف لعملية القراءة ووصفها، و هكذا إذا كان علينا مثلا أن نصوغ طرق الحصول على اللذة من القراءة، يكون علينا أن ننظر: لعملية قراءة خاصة.

لذلك قال :" تتحول عملية القراءة من مقولة نقدية إلى مقولة تأسيسية، لأنها بحثا في بناء نقدي، يسعى إلى استنباط نسقه المبدئي و مقوماته التوليدية " (3).

---

(1) عبد السلام المسدي : قراءات مع الشابي و المتنبي و الجاحظ و ابن خلدون، ط 2 ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، 1984، ص 5.

(2) المرجع نفسه ، ص 7 .

(3) المرجع نفسه ، ص 8 .

عند استبيان البناء النقدي النظري في عملية القراءة – و هي المرحلة البدئية التي تسعى إلى توليد الدلالة- نكتشف الغرض الذي يطمح القارئ لتحقيقه، للوصول إلى "الضبط الموضوعي" أو كما سماه "الثبت" لأن كل قراءة تتضمن قراءة خاصة بها، لذلك اتخذ طريقة تحولات الخطاب بين الضمائر، في تحليل الأبيات الشعرية، بحضور المتكلم و المخاطب فيها، و رصد التحولات الدلالية الطارئة على هذا الحضور في شرحه جزءا من قصيدة " للشابي" .

تعالج هذه القصيدة باعتبارها "خطاب يجري مجرى المناجاة لأنه غير ذي موضوع تبليغي، إذ يعتمد الوصف المطلق، فكان خطابا وجدانيا ذا مهجة غنائية، فأما المتوجه إليه بالخطاب هو ضمير المخاطبة "أنت" حل محل الرمز ليعقد الجسر بين الملفوظ و الوجدان، فتبوأ منزلة

المصداح الموحي بمتنفس الشعور، و سنرى كيف يتحول هذا الضمير إلى مفتاح الإلهام الشعري، لأنه سيكون ركيزة البناء و مقود الحركة في نفس الوقت" .(1)

يكون ضمير المخاطبة في هذه المناجاة بمثابة المرسل المتحرك للوجدان الباعث على الإبداع الشعري، بل يصبح المفتاح الرئيسي للقصيدة و المنظم لبنيتها و مفاصلها: "تلك إذن اللوحة الأولى بمشهديها و هي – كما أسلفناه – لوحة مدارها الإثبات من حيث هو عمق نفسي تجلوه حيكة لغوية، و قد عقد بين طرفيها الضمير المولد للرمز الشعوري و الإيحاء التعبيري :' أنت' وواضح كيف أنه أطلق شرارة الصوغ الشعري، ثم اختفى و يعود في مطلع اللوحة الثانية حتى لكأنه أمارة التمفصل البنائي في هذه القصيدة " .(2)

و يمضي الدارس متتبعا تحولات هذا الضمير الدلالية و الرمزية المتجلية على امتداد القصيدة، فحضور ضمير المخاطبة يتميز بالكثافة و الدلالة و الرمزية، إذ حضر في إحدى وعشرين مناسبة، و المهم عند الدارس تعدد أشكال هذا الحضور و تنوع وجوه ه، منها تقمصه رداء الحبيب والإله المقدس، و كذلك "الالتفات من بنية المخاطب إلى بنية الغائب" ، و لا يؤدي هذا التنوع أو التحول، كما قد يتبادر إلى الذهن في تغييبه أو نفيه : إنما يكسبه حضورا رمزيا و يسهم في إضفاء مسحة من التجريد عليه و سهره في صورة نقية خالصة من كل الشوائب العارضة .

---

(1) عبد السلام المسدي : قراءات ، ص 22 .

(2) المرجع نفسه ، ص 27 .

و هو ما تؤكده الصفات المسندة إليه، عندما قال: " يتطابق مفعول هذا المظهر التحويلي مع مضمون الدلالة، الذي يقوم على تلخيص خصال الكمال في الإنسان الحبيب، المشار إليه بضمير الرمز، و بذلك يلتقي من (الوداعة و الجمال و الشباب و الرقة و الطهارة)، ما ينصهر مع الطبع الفطري و الفضيلة الخلقية، و في كل ذلك تمتزج محصلات الحواس و إدراكات الوعي مع ارتياح الضمير الأخلاقي".(1)

و الحاصل أنه يستقرىء المعنى من إقامة هذا الضرب في التوازي بين الدوال المحيلة على طرفي عملية الخطاب : المبث و المخاطب، فالتلفظ يستدعي صراحة أو ضمنا و من وجهات تعبيرية عدة حضور المخاطب، كما أن توجيه الخطاب إلى مخاطب يستدعي إليه بالضرورة

ضمائر المتكلم أو ما يشير لح ضوره: " و من خصائص التواؤم بين المداليل و بنية الإدلاء هذا التوازي بين التحام طرفي التخاطب، فحيث ما كان ضمير المخاطبة ترافقت إليه ضمائر المتكلم بالإسناد و الإضافة: إن تصريحا و إن تضمينا ". (2)

أما مظاهر التجانس بين الكلمات الواردة في سياق البيت الواحد خاصة فهي متعددة أيضا، تحمل أشكال التناظر أو الموازاة أو الاختلاف بينها موضحا في سياق ما تؤديه من دلالات مختلفة، لإبراز الحدود بين الفرد و الجمع بين الواحد و المختلف تلتبس، و الفواصل تتماهى و تتداخل، تلك هي اللعبة الشعرية، كما أدركها دارسونا و سعوا إلى استجلاء معالمها.

و يجري "المسدي" عملية التحليل مبينا استدعاء الصوت نظيره و معانقة الكلمة صنوها ومحاكاة الكلام لذاته، بالتفات بعضه إلى بعض و رد بعضه على أعقاب بعض، في عملية دورا نيق، بحيث جاء بصدد هذا المعرض في سياق تحليله في هذه القصيدة : " أما عن محاكاة الإيقاع النغمي لبنية النسيج اللغوي، فخطه مسترسل على نهج التداعي الصوتي، و لكنه متميز بالازدواج

---

(1) عبد السلام المسدي : قراءات ، ص 26 .
(2) المرجع نفسه ، ص 47 .

و ما يتفرعه من ثنائيات يشرد بعضها عن بعض حينا، و تعانق أطراف البعض بعضا من أطراف الآخر تارة أخرى : ففي (الجد و الفؤاد) كما في (وضاءة.....في فضاء) انفراد و تمايز، ولكن زوج (الشاعر والشباب) يتعاظل بزوج (السكرة و السعيد)، ثم تستقل جملة من المثاني منها (تعرف.....العتيد) و(تتغانى حلوة التغريد)، و (تتهادى كأباديد) و هكذا (السحر و الحسن) و(تسحقي آمال نفس).(1)

كذلك يهتم "عبد الملك مرتاض " بتحليل هذه الظاهرة في أكثر من موطن في درا سته المطولة لقصيدة المقالح " أشجان يمنية " و من الأ مثلة الكثيرة التي يسوقها الدارس تجسيدا

للتواشج بين الكلمات، و لما ينعقد بينها من صلات صوتية، نذكر منها ما جاء في معرض إبرازه ما يسميه "الإيقاع الإفرادي" في البناء العام للقصيدة، و حاصله ما يجريه الشاعر من عمليات اشتقاقية، يرد بعضها إلى بعض و يحيل بعضها على بعض هي : بكائي /بكاها - أرقني/أرقها - تعرفني/أعرفها . (2)

و يواصل "المسدي" التحليل متتبعا تحولات ضمير المخاطب متفحصا مفاصل القصيدة، في ضوء هذه التحولات، حتى يبلغ ما يسميه بمشهد التنازل، و فيه يتجلى المتكلم، و قد انتهى إلى الغاية التي مدارها التدهور و الضيق لما يحمله إياه الفاعل " الأنت" من أعباء، فإذا المفعول به يستنجد بالفاعل، فبدا الأنا ينوء بعبء الأحداث: "و على هذا النسق ارتصفت رأسيا حلقات كفقر العمود الظهري: (امنحني و ارحميني و انقذيني) فاستلهام الإنقاذ هو اللب المكتنز في صيحة الاستغاثة، التي يرجع لها من صداها لهف ما له قرار، و لئن تراءت من نسيجه صورة التأزم النفسي، فإن صياغة الملفوظ اللغوي قد تعمدت كشف التلاشي العاطفي إلى حد الضياع في الوجود، فتوافدت مصادر الغيبة، و احتدت مرارتها بشعور الاغتراب الذي يوحي باقتلاع الجذور بين الحواشي، و هو ما صوره البيتان (48-49).(3)

---

(1) عبد السلام المسدي: قراءات ، ص 47 .

(2) عبد الملك مرتاض : بنية الخطاب الشعري ، دار الحداثة ، بيروت ، 1986، ص 199 .

(3) المسدي : قراءات ، ص 44 .

إنها الأزمة و قد بلغت بالشاعر أقصى حدود التردي و الشعور بالضياع، فجاءت الصورة مأسوية، نختار منها بعض الأبيات:

و حرام عليك أن تسحقي آمال نفس تصبو لعيش رغيد
منك ترجو سعادة لم تجدها في حياة الورى و سحر الوجود
فالالاه العظيم لا يرجم العبد إذا كان في جـــلال السجـــود

" هكذا بعد صوت الاستغاثة و دعوات الانتشال، تطالعنا لوحة الإذعال بما حيك فيها من صور الاستسلام المتدحرج تستل فيه الحركة من خبايا البنية، و هذا التدرج الآفل قد صيغ في المضامين الدلالية"(1).

و إذا كان اهتمام "المسدي" منصبا في دراسته هذه القصيدة على تحليل العلاقة القائمة بين ضمير المتكلم و المخاطب فقد وجه في دراسته قصيدة أحمد شوقي " ولد الهدى " المتضمنة في كتابه "النقد و الحداثة " إلى تحليل لعبة الضمائر و كيفيات تصريف الشاعر لها و ما يستوقف "المسدي" في هذه ا لدراسة، تشابك الضمائر في علاقتها بالمراجع التي تحيل إليها في عملية الخطاب الشعري، متخذا في ذلك الأجهزة المفهومية و الأخذ بمبدأ الاقتصاد في الوصف.

من هذه المظاهر أن الشاعر يتحدث عن ممدوحه - رسول الأنام – بأسلوبين: الأول يعتمد على الضمير الغائب (هو)، و الثاني يعتمد الضمير المخاطب (أنت) (2)

و ينصرف الدارس إلى الكشف عن طريقة "اشتغال" الضمائر و استجلاء شبكة الأجهزة المنتظمة في إطار عملية الاتصال: " ففي حالة تصريف قناة المخاطب (أنت) نرى المرسل (بالكسر) في الجهاز الشعري - الذي هو شوقي - يخاطب المرسل (بالفتح) في الجهاز المرجعي – و هو الرسول – فيصبح هذا المرسل في الجهاز المرجعي، مرسلا إليه في الجهاز الشعري"(2).

فيما يصبح المرسل ذاته في الحالة الأولى موضوعا للرسالة الشعرية، الموجهة إلى مرسل إليه، هو المتلقي الماثل في كلا الجهازين المرجعي و الشعري، و يسلمه التحليل إلى استخلاص أنماط من هذا 'التعاظل' الأسلوبي و نظم توزيعه في القصيدة منتهيا إلى إقامة جدول كاشف لهذا النظام:

---

(1) عبد السلام المسدي : قراءات ، ص 45 .

(2) عبد السلام المسدي : النقد و الحداثة ، ط 1 ، دار الطليعة ، بيروت ، 1983 ، ص 78 .

" على أن هذا التشابك المفهومي، لا يكتسي صبغة التظافر الأسلوبي إلا بفضل ظاهرة أخرى، هي ظاهرة توزيع القنوات المصروفة إبلا غيا، فالشاعر قد أقام أبيات قصيدته (و عددها 131) على تداخل بين الضميرين المعتمدين بصفة متراوحة إحصاؤها كالآتي:

1- (1-7) = 7 : هو ،

2- (8-14) = 7 : أنت ،

3- (15-24) = 10 : هو ،

4- (25-92) = 68 : أنت ،

5- (93-113) = 21 : هو ،

6- (114-123) = 10 : أنت ،

7- (124-126) = 3 : هو ،

8- (127-131) = 5 : أنت .

لأن غايتنا الأولية في هذا المقام هي إيضاح مبدأ " النموذج" في حد ذاته بغية الإقناع بفعاليته التحليلية، أكثر من استقصاء مردوده النوعي في هذا السياق المخصوص، ذلك أن عملنا هذا – و إن بدا على نهج الشرح التطبيقي – فإنه خادم للمنطلق النظري، إذ يرمي إلى إرساء أسس ' أسلوبية النماذج' كما أسلفنا"(1).

ثم يأتي الدارس في مرحلة أخرى عامدا إلى انتخاب مفاصل محددة من القصيدة و تحليل خاصياتها، في استعمال الضمائر ووظائفها في البناء العام للأبيات المدروسة، و لنا في التحليل التالي مثال يوضح طريقته في تناول الموضوع : " ثم يعود الالتفات إلى نبرة قارعة في المفرق الثالث:

24- بسوى الأمانة في الصبا و الصدق لم يعرفه أهل الصدق و الأمناء

25- يا من له الأخلاق ما تهوى العلا منها و ما يتعشق الكبراء

---

(1) عبد السلام المسدي : النقد و الحداثة، ص 79 .

و مرة أخرى نلاحظ التظافر في أدق صوره، فالتحفز الذي ساد البيت الأول (24) قد اعتمد تكثيفا مزدوجا، لحمته لفظية : (الصدق) ينادي (الصدق) و(الأمناء) رجع على (الأمانة)، ولكن سداه صوتي ينطلق من حرف الصفير المرقق في (سوى) و يتصاعد إلى حرف الصفير المفخم في (الصبا فالصدق و الصدق).

ثم يحصل الالتفات بضرب من الازدواج اللطيف في مطلع البيت الموالي: فيه النداء الموهم بالمخاطبة المباشرة، ثم تليه مراوغة في تصريف اسم الموصول، بما يزدوج فيه الحضور مع الغيبة، إذ في صيغة (يا من) ما يحتمل العطف بضمير المخاطب: (يا من لك) أو بضمير الغائب: (يا من له) و هذا ما توخاه الشاعر، فسبك قالبا متظ افرا تمر به و أنت "تستهلك" الشعر قراءة أو سماعا فلا تكاد تعيه .(1)

و يخلص الدارس من عملية استقراء إحصائي يقوم بها، إلى كثافة " قناة ضمير المخاطب" و هيمنة حضورها هيمنة تبين بأن:

" التوهج الإبداعي يمتلئ كما و كيفا في مخاطبة 'الممدوح الغائب' مخاطبة، هي أغرق في ابتكار الصورة الخيالية ، لأن نظام التحاور عندئذ يكون أ بعد تشابكا بتعاظل الأجهزة المختلفة : الشعريّ و المرجعية و المفهومية كما فصلنا بيانه سابقا، و على هذا الأساس يكمن اعتبار اللجوء إلى قناة الضمير الغائب في 41 بيتا ضربا من المراوحة، يلوذ فيها صوت الشعر إلى ما يتفادى به تراكم نمط الأداء حتى يتحاشى تشبع الإبلاغ" (2)

و في المرحلة الأخيرة يفضي الدارس بالتحليل بعد عملية استقراء لمظ اهر التناظر المتراكبة في مستوى استعمال الضمائر في القصيدة بين البيتين (40-43) يتميز بحكم توسطه القسم الوسط من القصيدة (و المتضمن 68 بيتا: 25-93)، بسمات تركيبية نوعية تتمثل في استقطابه ضرب الجملة التلازمية الشرطية المتمحضة لمعنى الظرف و المعتمدة في صياغتها أداة الشرط "إذا" و هو ما يحاول تبيين خصائصه في بقية التحليل .

---

(1) عبد السلام المسدي : النقد و الحداثة، ص 81.
(2) المرجع نفسه ، ص 89.

ـ جدلية الحضور و الغياب

النص الشعري من وجهة "عبد السلام المسدي" كائن يتجسد حضوريا بلغته التي يمارسها، و غيابيا بما ينفتح عليه من دلالات و تأويلات نفسية و اجتماعية، و لقد حاول الباحث استكشاف

الظاهرة، مرة أخرى عند " أبو القاسم الشابي " في مشروع نظري مستحدث خصصه للشاعر بعنوان : " أبو القاسم الشابي في ميزان النقد الحديث " ، في دراسة مستقلة، يعرض فيها صفة الشعرية التي أهلت الشاعر إلى ميزان النقد الحديث، فيقول:

" مهما حاولنا بأن نناظر بين تأويلنا لمراميه – الشابي – و الظروف التاريخية و الثقافية والنقدية التي أحاطت به يوم ألقى محاضرته، فلن ندرك بالظن أي مرتبة من مراتب اليقين" (1)

وهذا الكلام يدل على البعد المعرفي الذي يكتسيه الشاعر، و مرتبة اليقين التي يحتلها و قد "كان أبو القاسم الشابي مشدودا إلى اللغة بأسلاك دقيقة، هي في كثير من المواطن شديدة الخفاء و لا يوقفنا عليها إلا أمران : المعاودة التي لا تكل عن القراءة في تأن و في تب صر.....، ثم التيقظ للقرائن الجامعة بين الألفاظ و دلالتها المزدوجة " (2)

هدفه من ذلك الغوص في موضوع الشعرية و إثراء الخطاب النقدي و سعيه إلى إخراج هذا الخطاب من دائرة الشعارات الخاوية، إلى مجال الدراسة المعرفية المنبنية على أسس تأخذ بمبادئ البحوث ، و تحديد مدى إسهامها في تحقيق الوظيفة الشعرية، "فالمسدي" يكشف عن ازدواجية:

" تتحول فيها اللغة إلى ستر يتجاوز واقع 'الدلالة بواسطتها' إلى الدلالة 'من ورائها'، كما لو أنها في وضع إشراقي.(3)

---

(1) عبد السلام المسدي : أبو القاسم الشابي في ميزان النقد الحديث ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ، 1996 ، ص 35.

(2) المرجع نفسه ، ص 134 .

(3) المرجع نفسه ، ص 135 .

و نلاحظ أن "المسدي" في هذه العبارة حقق ازدواجية "الشابي" المجازية عن هذه الدلالة الظاهرة و الغائبة بإشراق الشمس التي تحجب الظل من ورائها، فالشعر قائم على بنية مفتوحة لا

تنغلق على معناه المعجمي، تأخذ من الدلالات و المعاني ما لا حصر له، كما أن دلالات اللفظ في معجم " أبي القاسم الشابي" حسب "المسدي" تعني قبل كل شيء:

" إسدال الستار على المكشوف حتى يتوار ى" (1) ، هدفه في ذلك " تغييب عالم الحس مجردا الوجود من سياج المكان و الحياة من سطوة الحقيقة" (1) .

و من هذا ينبعث السؤال الهام المتمثل في معرفة ما إذا استقام فهم الشعر، باعتباره إلغاء للمعنى أم أن التجاوز في اللغة الشعرية يقطع اتفاقا مع الشاعر لا نزال فيه ؟
لكن الباحث يرفض في كتاباته أن تكون اللغة الشعرية مقصودة لذاتها، فعملية الإبداع تنشأ في ظل واقع تحكمه علاقة الخيال و صناعة الدلالة في نفس الوقت، و يتجلى ذلك بقوله:

" ابتكار الصورة التي تتخلق في الخيال ، و الخيال رحم اللغة و به مولد الشعر " (2)
ووصف الشاعر على أنه غامر أكثر من ذلك في قوله : " إعادة تشكيل دلالة الألفاظ بما يج علها صنعة من صنائعه دون أن تناله تبعات المروق على اللغة، كان همه أن يدخل عوالم الخيال الشعري، و لم تكن له من حيلة إلا أسرار اللغة و مفاتيح التخ ييل: يعبر و يوحي، يتلفظ و يضمن، وفي كل ذلك تراه يتحاشى أن يأسر القارئ في سياج اللغة" (2)

فالقارئ له يطمئن لما يستسيغه من معاني و عندئذ : " لا نملك مع الشابي إلا أن نصادر على تناسج المقومات الأساسية في بنية الشعر لديه ، و كما تصوره و كما تحدث عنه ثم كما صاغه" (3)

---

(1) عبد السلام المسدي : أبو القاسم الشابي في ميزان النقد الحديث، ص 136 .
(2) المرجع نفسه ، ص 146 .
(3) المرجع نفسه ، 66.

فالهدف الأساسي عند "المسدي" من هذه الدراسة هو الكشف عن الأبعاد الجديدة في الشعر الحديث، من حيث أنها نابعة من تجربة كثيفة، امتدت إلى بنية اللغة ذاتها، فزعزعتها و ترتبت عليها بالاستتباع، نقلة نوعية في الرؤية الشعرية و أسس الإبداع، مثلا:

" حديث الذات عن الذات، فكأنه حوار نفسي كالمونولوج إذا رمت الاصطلاح، و أبدع ما فيها أنها زاوجت في مستوى الصورة بين قاموس اللغة الرومانسي و التحويل الدلالي لمعانيها، عبر المجاز، فأتت متراكبة تمعن في الإيحاء و من شدة الحبك تختفي لعبة اللغة المتراكبة:

في جبال الهموم أنبت أغصاني فرفت بين الصخور بجهد
و تغشاني الضباب فأورقت و أزهرت للعواصف وحدي
و تمايلت في الظلام و عطرت فضاء الأسى بأنفاس وردي

فالنظر المبادر يقف بنا على عتبة الاستلهام الرومانسي، و أما النظر الفاحص فيلج بنا إلى منطقة أخرى من الإدراك ليكشف لنا أن الجبال، و الأغصان و الضباب و كذلك الأزهار، والأوراق و العطر ، ثم العواصف و الظلام، كلها ألفاظ حولت عن مجرى معانيها، فخرجت من حقل الدلالة على الطبيعة – بمكوناتها الحسية و أعراضها غير الحسية – إلى دلالات لا صلة لها بالطبيعة إطلاقا، فالجبال هي الهموم، و الأغصان هي تنامي الذات، و الصخور مكابدة الكيان، والضباب متاعب الحياة، و الأوراق و الأزهار مع العواصف صعوبات في تدرج الوجود و تطور النمو".(1)

وهذا التنظيم اللغوي الراقي أو هذا النوع من الكتابة يمثل كما يقول الناقد الروسي "رومان جاكوبسون": " عنفا منظما يمارس على الحديث العادي، يحول و يكثف اللغة العادية، و يحيد بانتظام عن حديث كل يوم " (2).

---

(1) عبد السلام المسدي: أبو القاسم الشابي في ميزان النقد الحديث ، ص 74.

(2) تيري إيجيلتون : مقدمة في نظرية الأدب – كتابات نقدية ، العدد 11 ، ترجمة أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1991 ، ص 12.

فاللغة في طبيعتها العادية ليست إبداعا و كلما انحادت عن المألوف باتجاه الخيال و المجاز، حملت طابع الثراء و التكاثف الدلالي بطريقة يحكمها نظام، " و الحاصل أن آلية التخييل كما أحكم الشابي صنعتها، بواسطة تفجير كوامن اللغة، قد خرجت ببنية الكلام هنا إلى هيئة تضيق عنها ثنائية الإنشاء و الخبر"(1)

و يعود أصل المبحث عند محمد مفتاح في كتابه "تحليل الخطاب الشعري" إلى ما يعرف " بالإبدالية، trope" ، و حاصلها أن لكل كلمة معنيين : حقيقي و مجازي، إن استبدلنا أح دهما بالآخر، في سياق معين، نتجت الصورة :

" و هكذا فعندما نقول عاشرت بحرا – أمطرت لؤلؤا، فبحر و لؤلؤ كل منهما له معنى حقيقي و مجازي و قد استغنى الشاعر عن المعنى الحقيقي و استغل المجازي ....و المسوغ لهذا الإبدال هو علاقة المشابهة"(2).

كما يتطرق الباحث في هذا الموضوع إلى تحديد الصورة من حيث بنيتها و آليات توليدها، فلبعضها جذور في البلاغة و الآخر في الألسنية و علم النفس و الأرثروبولوجيا و الفلسفة ...إلخ.

و النتيجة أن حصر الوظيفة الشعرية في الشعر، تبطله الدراسات ا لحديثة و تفضي بعدم صحته، لذلك تتجاوز ال دراسات الشعرية الحديثة النظرة الإنشائية التقليدية القائمة على تناول القصيدة، باعتبارها نسيجا يهم الدارس منه استخلاص شبكة العلاقات، ذات البعدين الأفقي والعمودي، لتدمج بعدا ثالثا يمكن أن نصفه بالعميق لأنه يختص بدراسة ال علاقة بين المتلفظ وملفوظه و طريقة كتابة الذات في القصيدة، في علاقة بين الأنا من ناحية و الأنت من ناحية أخرى.

و من هذا الطرح استتبع "المسدي" مراحل يصف فيها النص الشعري "للشابي" و هو الأغاني ، "أغاني الحياة" و النص الشاهد وه و "الخيال الشعري عند العرب"، في وجهة استثنائية مغايرة للطبع المألوف عند نقادنا، كما قال: "في أننا لا نغادره إلى الواقعة التاريخية، و إنما نغادره إلى الحدث الأدبي و الواقعة النقدية" (3).

---

(1) عبد السلام المسدي : أبو القاسم الشابي ، في ميزان النقد الحديث، ص 92 .

(2) محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري – إستراتجية التناص ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب، 1985،ص 83.

(3) عبد السلام المسدي : أبو القاسم الشابي ، في ميزان النقد الحديث ، ص 47.

فمهما كانت المسافة الزمنية التي حاضر فيها الشابي مدونته، لا يمكن إسنادها إلى واقع التاريخ التقليدي، و لكنه على حد تعبير "المسدي": " وصلا بين ماضي معقود بحاضره و حاضر تواق إلى ما هو قادم " (1).

أما الوجهة الاستثنائية التي كشف حجابها "المسدي" ، فهي الازدواجية بين النص الشاهد والنص الشعري، على أن هذا النص النقدي صاحبه هو صاحب النص الشعري، فنجد أنفسنا أمام نصين في حالة تناظ ر، لأن خطابه النقدي و هو يتحدث عن الشعر أقرب إلى الشعرية، مقارنة بالأداء النثري، لأن الشاعر كما قال " المسدي" :

"سوى 'الخيال الشعري' كما يسوي كل صاحب مشروع مشروعه، و صاغه كما يصوغ المنظرون تنظيراتهم، و لم يكن في ه منسلا من فيلق الشعراء، و لا اصطنع الانسلاخ المنهجي ليتحدث خارج مراسم الانتماء إلى قول الشعر، و إنما كتب ما كتب و هو متقمص للحالة الشعرية كما لو كان ينفث كلمات الشعر و هو يتحدث عن الشعر، حتى لكأن خطاب النقد هو إلى شعرية الخطابات أقرب منه إلى نثرية الأداء " (2)

و يفسر " المسدي "، أن الخيال ملازم للإنسان "حتى لكأنه نسغ الحياة و رواؤها، بل إن هذا التقييد في تلاحم الأشياء، قد بلغ من التوالج بحيث غدا الخيال معه علة من علل ووجود الإنسان" (3)

و في هذه الحالة تكون العلاقة بين اللغة و الخيال، عند الشابي غامضة، لا يمكن إدراكها حسب الدارس، إلا بضرب من الحدس، مما تقوم عليه من طرق التعبير و الربط المحكم الدقيق الذي لا يمكن إرجاعه إلى أي تأويل بلاغي، كما نعرفه في سياق المجاز، فهو يتجاوز ما تقوم عليه هذه الفنون:

" غير أن الاستطراد ينتهي بالشابي إلى الوقوف على ومضة يبتها بضرب من الحدس النقدي حول اللغة، لا يسعنا اليوم إلا أن نتملاها بفحص دقيق دون أن نصل إلى إدراك ترسباتها الأولى لدى صاحبها، و مدار ذلك هذا الربط المحكم الدقيق الذي أقامه بين اللغة و الخيال و طرق التعبير، ثم جرد الإنسان فأخرجه من دائرة الفعل إلى دائرة الانفعال، كل ذلك في منأى أي تأويل

---

(1) عبد السلام المسدي : أبو القاسم الشابي ، في ميزان النقد الحديث، ص 20.

(2) المرجع نفسه ، ص 48.

(3) المرجع نفسه ، ص 50.

بلاغي إذ قد ضمن الشابي محاضرته موقفا صريحا من هذه الوجهة – و بناءا على ه ذا المدخل، تعين تأويل كلام الشابي في موضوع علاقة اللغة بالخيال، تأويلا يخرج على سياق المجاز كما هو متعارف عليه في فنون البلاغة" (1)

فالخيال من مقومات اللغة، الذي يحمل العبء الذي يرهقها به الإنسان، فلولا الخيال لما حملت اللغة الأفكار الإنسانية من عواطف و شع ور وهموم و أحلام، فاللغة عنده ما هي إلا ثوب يكتسي اللفظ داخل بوتقة الخيال، و تحديد مفهوم الشعر لا يقف إلا على الصور الخيالية المولدة للشعور.

مثلا في الأبيات التالية :

ما الشعر إلا فضاء يرف فيه مقالي
فيما يسر بلادي و ما يسر المعاني
و ما يثير شعوري من خافقات خيالي (2)

- كما يصف العاطفة في " صلوات هيكل الحب" التي لا تتولد إلا مع الخيال، للمطابقة بين الذات الموصوفة و الخيال في قوله: " ثم يتسامى فجأة:

و تهادت في أفق روحك أوزان الأغاني و رقة التغريد
فتمايلت في الوجود كلحن عبقري الخيال حلو النشيد
أنت دنيا من الأناشيد والأحلام والسحر والخيال المديد
أنت فوق الخيال و الشعر و الفن و فوق النهى و فوق الحدود

وما من شيء في كل ذلك إلا و هو تأكيد على انسجام رؤية الشابي فيما قاله عن الشعر وفيما صاغه شعرا و هذه هي درجة المواءمة داخل العالم الشعري و الوجداني لدى شاعرنا، وهي بنفس الاعتبار مسبار التمييز في الغرض المطروق، و رائز من روائز الأصالة الذاتية في دلالة المضمون .

(1) عبد السلام المسدي: أبو القاسم الشابي في ميزان النقد الحديث ، ص 51 .
(2) المرجع نفسه ،ص 52 .

و يصدق مثيل هذا التكاشف " في الخيال الشعري عند العرب " ...لا في التاريخ و الزمن وإنما في التقدير و الاعتبار.(1)

فإذا عمدنا إلى رد هذا الاعتبار فهو يقف على النص و العبقريات المستعملة في المزج بين النصين على مقاس الخيال، للكشف عن " حقائق قد عولجت على مراس الواقع "، وتأويل ه ذه المقولة الشعرية في ' حدها الماهي'، و يلفت النظر إلى هذه الظاهرة " عبد الملك مرتاض" في 'نظرية القراءة'، أن التأويلية من هذا المنظور تتبوأ مكانة كبيرة في موقع العلوم، التي تتظافر على قراءة النصوص و تحليلها، من اجل مقاربة فهمها، و لا شيء يستطيع تعويضها كما لاحظنا، لأن النقد بحكم ماهيته ووظيفته معا، هو أيضا لا يستطيع أن يتمحض لما لم يكن من اجله، و لأن اللسانيات هي أيضا لا تستطيع أن تذهب إلى أبعد مما اختارت لنفسها من عنايتها بسطح النص، بل بجزء معين من سطح هذا النص، حيث تنتهي غايتها لدى انتهاء الجملة، أو لدى ربط الجملة بالجملة الأخرى "(2).

و يضيف "المسدي" إلى ذلك كاشفا هذه البنية التأويلية و ما يقتضيها البيان القائم حول النص الشاهد للشابي لتحقيق الخطاب التأسيسي و مقوماته : " إن ما على السطح يغري بانتخاب 'الخيال الشعري عند العرب' ممثلا لصوت الميثاق، فبنيته الصريحة و بنيته المؤولة، لا تنفكان عن مراسم الخطاب التأسيسي، لكل الحيثيات التي يقتضيها ' البيان' الكاشف لبنود المشروع الشعري كما لو كان نسيجه كنسيج الدساتير الوضعية . و كل ما يتبدى على ظاهر الديوان يستدرجنا إلى تعيينه ممثلا للإنجاز، كيف لا و هو الشعر يتحدث عن كل شيء" (3)

و بالتالي اعتبر الباحث شعرية الشابي، متكأ أساسي في النقد العربي الحديث، ووزنه في هذا الميزان، ماله من تأثير على ما نعيشه في عصرنا و ما ننتظره في الوقت نفسه، لذلك وصفه بالبيان المتكامل.

---

(1) عبد السلام المسدي : أبو القاسم الشابي في ميزان النقد الحديث ، ص 54.
(2) عبد الملك مرتاض : نظرية القراءة – تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية، دار الغرب، الجزائر، 2003، ص 190.
(3) المسدي : أبو القاسم الشابي في ميزان النقد الحديث ، ص 56.

المبحث الثاني : قضايا النص الأدبي

- **قضايا النص الأدبي عند الباحث.**
- **واقع النص الأدبي.**
- **مراحل نشوء النص .**
- **الناقد و لغة النص.**
- **العلمية و آليات المنهج في النص.**

- **قضايا النص الأدبي عند الباحث**

بعد أن قدم "المسدي" ما أثارته الدلالة البنيوية من خدمات عالية القيمة للتحليل النصي، وما أسهمت به في إضاء ة جوانب كانت غائبة من البحث، انتقل إلى زوايا جديدة في حركة نقدية

نشيطة، تمثلت في صدور عناوين كثيرة في حقل فهم عملية الكتابة و دراسة النص و آليات القراءة و قضايا التلقي و دور الذاكرة في خزن المعارف و إنتاجها و مسالك الدلالة الدقيقة و مسائل تداول الخطاب و ديناميته، و من هذه العناوين : النقد و الحداثة، في آليات النقد الأدبي، فيما وراء اللغة، عالم اللغة و لغة النقد، مساءلات في الأدب و النقد، النص و الأدب.

و هذه العناوين إن دلت على شيء فهي تدل على غزارة البحث في هذا الميدان و كثافته، وقد نشرت هذه الدراسات إما في كتب مستقلة أو ضمن مجلات نقدية مختصة، تصب كلها في لب الدراسات الفكرية العربية المعاصرة، كان لها طابع مميز، ربما ترجع الأسباب إلى انفراد الباحث في النظر إلى الدراسات النقدية من زاوية لسانية، ما أكس ب هذه الوجهة الدراسية طبع خاص ضمن دراسات النقاد العرب.

تناول "المسدي" في معرض خوضه في إشكالات النقد الحديث و مفاهيمه النظرية، حقول معرفية كثيرة، و حرصا منا على التعريف بأهم محاور الاهتمام عند الباحث، و حتى تكون الصورة – صورة المناهج – في دراستنا مكتملة، دون الإدعاء بإلمام هذه المناهج و المباحث، قمنا بحصر المادة بعرض أهم المضامين و تلخيصها في عناوين فرعية.

- ***واقع النص الأدبي***

يبرز لنا الباحث في هذا المجال المبادئ النظرية و الطريقة التي بوسعنا التوسل بها للكشف عن طاقات الإبداع في النص الأدبي، و ذلك بالكشف عن أسرار و خبايا اللغة و ما يكتنفها من غموض، لذلك كان السبيل إلى استنطاق هذه الأسرار و توضيحها على السطح البادي، فقال:

" للأدب أسرار يعرفها النقاد، و في اللغة مكنونات يستخرجها علماء اللغة من خباياها . ومعرفة الناقد بالأدب تظل ناقصة ما لم تعضدها معرفة بل غة الأدب، كما أن معرفة عالم اللسان باللغة تظل محدودة ما لم تتسع آفاقها فتشمل أسرار اللغة عندما تتجلى في الأدب" (1)

و المقصود من ذلك هو أن النص يقدم واقعا معرفيا تصنعه اللغة لما تمتلكه من قدرة على التأثير، فالنص يرتبط بمادة تحققه لينتقل من مرحلة إلى أخرى، من محطة إلى محطات بالتوفيق بين هذا و ذاك " و بين هذا و ذاك محطات من اللقاء، و محطات من العمل و محطات من التآزر . و أهم تلك المحطات على الإطلاق قضية المصطلح " (1)

إن "المسدي" في هذا الربط، يشير إلى ثلاثية أساسية هي التي تحقق التوفيق للوصول إ لى محور التداول و هو عنصر الاصطلاح ، انطلاقا من نظرية ، عبر منهج معين، لتثبيت هذا المصطلح، فالدارس يربط بين هذا و ذاك لتحقيق الغرض على أساس نظري و منهجي في استتباع الدلالة.

فهي تنهض – الدلالة – على تراتبية في مستوى العلاقات البسيطة إلى الأكثر تعقيدا، على نحو يضمن إدماج كل م ستوى في المستوى اللاحق له، انتهاءا بذلك إلى البنية الكلية الضامة للمستويات الدالة جميعا في ظل اللغة المؤسسة للنص، في بنيته العميقة و الجامعة لمختلف تفرعاته.

" و من كل ما سلف يتجلى أن الوزن المعرفي في كل علم رهين مصطلحا ته، لذلك نسميها أدواته الفعالة لأنها تولده عضويا و تنشئ صرحه ثم تصبه خلاياه الجنينية التي تكفل التكاثر والنماء. ذلك ما يفسر إذن كيف أن كل علم يصطنع لنفسه من اللغة معجما خاصا" (2)

---

(1) عبد السلام المسدي : مساءلات في الأدب و اللغة، ط 1 ، كتاب الرياض ، العدد 10، الرياض ، 1994، ص 31.

(2) المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات، ص 53 .

وفي هذه الحالة فالنص رهين مصطلحا ته و هذه المصطلحات تحكمها معايير و مواصفات خاصة، وصفها بالجنينية لأنها تتبع الكل العضوي . و يشهد على ذلك الدكتور "يوسف وغليسي" في كتابه 'إشكالية المصطلح' :

" فليس وضع المصطلحات بالأمر الهين اليسير، لأنه يتطلب تمكنا من المادة و فقها في اللغة، و إحاطة بالتاريخ ووقوفا على النشاط العلمي المعاصر .....لأن النبر القوي الذي يحمله المصطلح في السياق اللغوي الذي ينتظمه، يجعله – بلا شك – يصنف بحكم موقعه المعرفي الاستثنائي، في خانة ما يؤخذ بعين الاعتبار و هو وضع يقتضي – حقا – مواصفات خاصة" (1)

لأن هذه المصطلحات هي التي تستحضر الواقع و ترسمه على المستوى التد اولي، لتمثل جميع أنواع النشاط الإنساني، لذلك تهتم جل الأبحاث المعاصرة في مجال استكشاف هوية النص، انطلاقا من هذه الخصائص الممثلة له، لتثبت عن طريقها هويته، فالناقد مثلا يختبر ل غة الكتابة الأدبية، لا مصداقية الكاتب، لأنه يحصر نقده في ضوء العلامة ليقيم حديثا معها.

فهو يدرس تنظيمها الرمزي و المنطقي و مدى قوتها أو ضعفها، بغض النظر عن الحقيقة التي تزعم أنها تعكسها، كما كان ي حصرها النقد الإيديولوجي ، لذلك لا يمكنه إسناد نص ما إلى صاحبه، لنزعم أننا نكشفه – صاحب النص – عبر صياغاته الأدبية و إلا لن يترك المجال للناقد لممارسة حكمه على هذا النص .

" و لا طالما ساد النظريات النقدية مبدأ ربط النص بصاحبه و قصر مسألة انتماء الخطاب الأدبي على واضعه، و كان من أصول هذا التسليم في العصر الحديث، القول بالالتحام المطلق بين شمائل الصياغة الأدبية وخصائص صاحبها، مما جعل الناس يطابقون بين الأسلوب وصاحبه" (2)

---

(1) يوسف وغليسي : إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد ، ط 1 ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف، الجزائر ، 2008 ، ص 69.
(2) عبد السلام المسدي : في آليات النقد الأدبي ، ص 32 .

ويرجع"المسدي" هذه المطابقة إلى "بيفون" في أثره "مقالات في الأسلوب" ، الذي يقر بأن المعارف و الأحداث لا يمكن أن تنتزع من صاحبها، باعتبار أن بناء الكلام ه و صورة لصاحبه و أن الأسلوب هو في حد ذاته صاحبه، ثم جاء الباحث الفرنسي "مارسال بروست" ليتبنى

هذا التطور على أن جوهر الأدب هو البصمات التي تحملها الصياغة الأدبية عن صاحبها، و هكذا ازداد الكثير توثقا بهذا الاتجاه ، الذي ينسب الخصائص الأسلوبية إلى طبائع الأدباء.

و هذا ما يسميه "المسدي" - الإسقاط – " و هو ما يجعل العمل النقدي حسب هذه النظرية في أحد اتجاهين أن ينطلق من الأثر إلى الأديب أو ينطلق من معلومات تاريخية حول الأديب، ليفك بها أسرار النص نفسانيا" (1)

و لكن السؤال المنطقي كيف يمكن للكاتب أن يتحدد من أدبيته و نحن نعرف أن الأديب يعمل على توليد المعاني و تفجيرها، دون تعيينها بأسمائها، مستخدما في ذلك دوالا لغوية خالية من كل مدلول مباشر، كما نعرف أن لغة الأدب لغة كثيفة و موحية لدلالات لا حصر لها و لعددها، يكتنفها الالتباس ومن المعروف أن الأثر الأدبي يتحدد بأنه كل تمتزج فيه و تلتقي روافد لا حد لاتساعها .

و يعلل " المسدي" الظاهرة أن الذي ينسب النص إلى صاحبه هو صاحبه قبل أي كان ولكن" هذا لا يدخل في مجال العملية النقدية . أما الذي يتقبل النص انطلاقا إلى الإقرار بنسبته إلى صاحبه فهو القارئ، الذي يستمتع بلذة النص، ثم الناقد الذي يحول هذه المتعة إلى موضوع للبحث عن الأسباب التي وفرتها، و المقومات التي استندت إليها" (2)

فهو يعتبر أن الكلام عن الكاتب من خلال الكلام عن نصه هي مهمة الناقد ، أما العكس، فهي تخرج عن إطار النقد. ليخلص في ذلك إلى أن علاقة النص بقارئه هي الأساس في النقد و أن كل ما يخرج عن هذا السياق إلى ما يتصل بعلاقة النص بصاحبه هو من تاريخ الأدب و في التمييز بين النقد و تاريخ الأدب إغناء لهذا و لذاك.

و لكن لا يعني هذا التمييز عند الباحث قطع العلاقة بين المنهجين و إنما يعني الاختلاف في المقاييس و المدخل المنهجي إلى كل منهما.

---

(1) عبد السلام المسدي : في آليات النقد الأدبي ، ص 33 .

(2) المرجع نفسه ، ص 36 .

• مراحل نشوء النص

أما بالنسبة إلى استقراء المراحل التي يمر بها النص الأدبي و هو ما يسمى عند " المسدي": نشوئية النص ، و هي الصيغ المتعاقبة التي بنى عليها الكاتب نصه و ما تشمله من تنقيحات و تعديلات حسب طبع الأديب و طريقته في مسايرة نصه .

و باجتماع هذه الصيغ المتعاقبة مع طبع الكاتب في سياقات محددة بتوفر كل المعطيات الوثائقية يتولد ما يسمى عنده " المبحث النشوئي في النقد الأدبي " ، و هذا المبحث يمثل مراحل بناء النص الأدبي قبل ولادته ، و ما يهمنا هو ما بعد هذه العملية التي يفقد فيها المؤلف مفاتيحه، ليسلمها إلى القارئ في رحلة تسمى بالبرهة الزمنية، التي يكف فيها الأديب عن الاشتغال، لينتج على غرار ذلك عملا مؤسسا على أفق من الاحتمالات الدلالية التي ينتظرها القارئ الذي اعتبر:

" الموقع الحقيقي على شهادة حياة النص، لأنه هو الذي يحكم على ما يتلقاه من أي أديب بأنه أدب، فهو الذي يضفي عليه بالتالي السمة الإبداعية أو قل هو الذي يقر له بها". (1)

و على هذا الأساس ظهر ضمن تيارات النقد الحديث المنهج الذي يبدي اهتماما كبيرا للقارئ بالمعنى المطلق للكلمة، لا بالمعنى الضيق" فأدبية الأدب لا تكتسب من قبل الأديب بصفة تلقائية، حيث أن المتلقي هو الذي يضفي الصبغة الأدبية على هذا النمط من القول الذي نسميه أدبا، و ما يؤكد ذلك هو أن كثيرا من النصوص اللغوية لم يعترف لها بالأدبية إلا حين قرر المتلقي (فردا أو ثقافة) الاعتراف بها، كما أن نصوصا أخرى كانت تكتسب أدبيتها في مرحلة ما ثم فقدتها في مرحلة لاحقة، بعد أن سحب منها المتلقي تلك الصفة ".(2)

---

(1) عبد السلام المسدي : في آليات النقد الأدبي ، ص 39.

(2) عبد العزيز جسوس : إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي المعاصر ، ط 1 ، المطبعة و الوراقة الوطنية الداوديات ، مراكش، المغرب ، 2007 ، ص 95.

و قد أدت هذه الوجهة بالمدارس الغربية مسالك عديدة يتحدد على إثرها القارئ، فإذا كان للقراءة هذا النصيب الوافر من الأهمية و كان القارئ هو الأساس في صنع الدلالة الحقيقية في النص، فهل هؤلاء القراء و هذه القراءات تستوي في القيمة و الاستقامة؟ .

فالإقرار بوجود قراءة صحيحة، يفترض ضمنا أفضلية بعض القراءات على قراءات أخرى، بل وجود قراءة مثالية، لذلك طاف الأمر عبر مراوحات ثنائية ثلاث:

أ – بين القارئ المستهلك و الناقد المتميز.

ب – بين القارئ النموذجي و الناقد الوسيط (بين النص و صاحبه و قارئه) .

ج – الناقد المتميز و القارئ النموذجي .

و يشير " المسدي " في هذا المجال إلى أعمال الفيلسوف الفرنسي " ميشال فوكو" باعتباره من الذين:

" أدركوا بحس دقيق هذا الجانب من جوانب تعامل الإنسان مع اللغة مبدعا و مستمتعا . ولا شك أن اهتمامه بعلاقة الأشياء بأسمائها من جهة و بحفريات المعرفة من جهة ثانية قد قاده إلى النبش في خبايا اللغة، و هو ما جسمه في مصنفه "نظام الخطاب" حيث تناول العلاقة التأسيسية والإجرائية القائمة بين الكلام و الواقع، فأقام موازنة بين نظام اللغة و أنظمة الفكر الفلسفي المنكب على تشخيص الواقع" (1).

و إذا رجعنا إلى كتاب "حفريات المعرفة" في ترجمة " لسالم يفوت" نجد وجهة نقدية عميقة في هذا المجال حول القرائن الوجودية بين الذات و ما يحيط بها، في تساؤلات حول صحة نسبة الأثر إلى صاحبه كما قال : " تبقى وظيفة غير متجانسة : فهل يدل اسم المؤلف، و بنفس الكيفية على نص نشره هو نفسه باسمه أو على نص نشر باسم مستعار . أو على نص آخر لا زال في هيئة مشروع أو مسودة عثر عليها بعد وفاته .....، نحن نعتقد أن ثمة مستوى بلغ من العمق حدا يلزمنا تخيله، ينكشف له الأثر بكل جزئياته...بل هي نتائج عملية ما و هي عملية تأويلية" (2)

---

(1) عبد السلام المسدي : في آليات النقد الأدبي ، ص 40.

(2) ميشال فوكو : حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت ، ط3 ، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، 2005، ص 24 .

و قد انتهى إلى أن وجود الذات و تجربتها ترتبط بعالم الخطاب الذي يبدعه الإنسان و يتخذه غاية من غاياته، إلى جانب "رومان جاكوبسون" الذي " بنى تصوراته بخصوص اللغة الأدبية على أساس جهاز التواصل بعناصره الستة كما هو معلوم، و حيث كان المتلقي طرفا رئيسا في العملية التواصلية، فإن تعريف أدبية اللغة قد كان متعينا بالأثر الذي تنجزه اللغة الإبداعية في أحاسيس المتقبل و هو القارئ بالمعنى الذي أسلفنا. لذلك ارتبط مقياس تعريف النص بما يحصل لدى المتلقي من إثارة يكون الخطاب بموجبها عامل استفزاز يحرك استجابات ملائمة و يتضاعف مفعول الإثارة حسب جاكوبسون بمدى قوة المفاجأة التي يعرفها بأنها بروز العامل الذاتي من خلال العنصر الموضوعي " (1)

و المهم أن الباحث يخلص في هذا السياق إلى الحكم الفاصل في تحديد أدبية النص، و لعل الباحث الأمريكي "ميخائيل ريفاتير" سعى إلى الإثبات بأن الأسلوب منغرس في اللغة و أن ما من انفعال يداخل القارئ، إلا و يكون له ما يبرره في مستوى التعبير، و بات من الفرضيات المسلم بها أن الدراسة الأسلوبية هي من فروع الألسنية و هي جوهرها .

و استتبع ذلك أن الاستعانة بالألسنية، باعتبارها أداة لا غنى عنها في المباشرة الأسلوبية، لكن لما كانت المنطلقات غير واحدة لانتظام الدراسة الألسنية داخل الجملة و تجاوز الأسلوبية حدودها لتشمل الخطاب كاملا وجب تعديل أدوات البحث المستعملة في الأسلوبية و تطويعها على نحو يناسب مقتضيات الألسنية.

و في هذا الاتجاه صوبت الدراسات الأسلوبية جهودها، طمعا في الانتصاب مبحثا علميا موضوعيا و استحقت تأييد ريفاتير لها الذي سعى إلى أن يضبط قياسات تجريبية تحدد علاقة القارئ بسلم القيم الجمالية في اللغة الأدبية .

(1) عبد السلام المسدي : في آليات النقد الأدبي ، ص 41.

استنادا إلى هذا التقدير من طرف ريفاتير لا ينطلق الناقد حسبه من النص مباشرة، و لكنه حسب " المسدي" : " نادى باعتماد قارئ مخبر يكون بمثابة مصدر للاستقراء الأسلوبي يجمع المحلل كل ما يطلقه من أحكام معيارية معتبرا إياها ضربا من الاستجابات نتجت عن منبهات كامنة في سياق النص"(1)

و حتى و إن تميزت هذه الأحكام بالذاتية إلا أنه وصفها بالموضوعية، لأنها ليست عفوية والاعتباطية تصب اهتماماتها في ميدان النقد الذي لا يهتم بالأحكام من الوجهة الجمالية.

فالأسلوب حسب ريفاتير لا يتعلق بالضرورة بالنص الأدبي كاملا أو بنوع مطلق من الخطاب، إنما يتحدد انطلاقا من السياق، و عليه إضافة إلى ريفاتير يضيف " المسدي" صوت آخر و هو الدانماركي " هيالمسالف" الذي وضع النظرية الانتظامية الشاملة للظاهرة اللغوية و ع مل على توسيع مفهوم الدلالة في النص الأدبي، إذ تشمل الدلالة عنده النص الكلي حتى غدى هو بنفسه أداة دلالية.

فالأسلوب في حد ذاته دال في سياق محدد، أما مدلوله فهو تلك الصورة الانفعالية و الجمالية لدى القارئ " فمجرد تعبير الإنسان عن فكرة ما شعرا بدل تعبيره عنها نثرا، يعد تنبها للمتقبل إلى أن النص – فضلا عما يحمله من دلالات أولية تكون بنية رسالته – قد استحال في صياغته دالا متصلا بنظام إبلاغي آخر غير النظام اللساني البسيط .(2)

حاول الباحث أن يبدي الفعل الإبداعي من خلال الأثر الذي يتركه النص في قارئ النص، و هذا تقريبا ما اجمع عليه الدارسون الأواخر الذين تطرقنا لهم في البحث، و من علامات ذلك تأكيد ريفاتير البعد اللغوي للظاهرة الأدبية، فلا أدبية خارج النص .

و يتناول "المسدي" موقف كل من هيالمسالف و ريفاتير بشيء أكبر من التبسيط و الدقة، على أن السبيل المعتمد من خلال درا ساتهم في إرداد أثر النص الأدبي إلى القارئ، لم يكن دائما على الاستقامة التي تخيلوها . و السبب في ذلك أنهم لم يتطرقوا إليها من موقع البحث في انتماء النص سواء أكان ذلك من الناحية المنهجية أو من الناحية المعرفية.

---

(1) عبد السلام المسدي : في آليات النقد الأدبي ، ص 42 .

(2) L . Hjelmslev : prolégomènes à une théorie du langage , paris Minuit , 1968 , p 35.

و ربما يعود هذا التقصير في الاستنتاج خاصة عند ريفاتير، هو الخلل في التأسيس النظري و منطلق البحث، ذلك أن مفهوم الأسلوب عند القائلين بهذا المبدأ يتسع ليغطي النص كليا، أي أن الخطاب الأدبي في كليته يختص بميزات أسلوبية تفرده أو تميزه عن الكلام العادي، و لكن إذا كانت هذه حجتهم الأساسية في هذا التقصير فكيف يفسرون تلك اللغة العادية، أو تبدو عادية على سطحها، لكنها مما يعرف بالسهل الممتنع، نظرا لما تحمله من خاصيات أسلوبية مبرمجة على لغة عادية .

لذلك وجب الاهتمام " بخط الفصل بين انتساب النص إلى قارئه عبر صاحب النص ذاته ، إلى متقبله عبر سجله اللغوي المطلق، و انتساب النص إلى قارئه عبر صاحب النص ذاته، و بين المرتبتين فارقا جوهري، له دلالاته و إن كاد يخفى على النظر في البداهة الأولى، و قبل التمحيص المتبصر لدقائق الأمور" (1)

• *الناقد و لغة النص*

وجب علينا دراسة اللغة و تحولاتها من منظور " المسدي" في بابها الواسع، و كيف أن الأسلوب يحقق فيها امتيازا في تحولاتها المختلفة، لا إرهاصا في التعبير، بحصره في مجال ضيق، فالنص الأدبي إذن ينتمي إلى صاحبه من حيث هو كلام مبثوث، أما أدبيته فهي أساسا وليدة تركيبيته اللغوية، أي وليدة ما ينشأ بين هذه العناصر من أنسجة متنوعة متميزة.

و هذا الكلام أضافه " المسدي" في كتابه النقد و الحداثة، لتحديد ال خط الفاصل في مسألة انتساب النص:

" فتكون السمة الأدبية متطابقة مع فكرة الاستعمال اللغوي المجسم و المحدود بسياق معين، لأنها تحدد إطلاقا من خصائص انتظام النص بنيويا، مما يجعل الطابع الفني علامة مميزة لنوعية مظهر الكلام داخل سياق الخطاب و ما تلك السمة إلا شبكة تقاطع الدوال بالمدلولات و مجموع علاقات بعضها ببعض و من كل ذلك يتألف النسيج النوعي للخطاب الأدبي" (2)

---

(1) عبد السلام المسدي : في آليات النقد الأدبي ، ص 44 .

(2) المسدي: النقد و الحداثة ، ص 46 .

و بهذا نخلص إلى أن إسناد سمات مميزة أو محددة أدبيا إلى النص لا تؤثر عليه أو تعزله في بعض أجزائه دون أخرى و حتى فيما يتولد من هذا النص ، من صور و انزياحات، فهي بمثابة ثمرات في أغصان تنتمي إلى الشجرة الواحدة، لأن الأدبية ليست ملكا لمفاصل أو أجزاء محددة، بل هي ملكة السياق النصي في بنائه الكلي .

و مهما يكن فإن مهمة النقد الأدبي لا يمكن أن تنحصر في هذا الجانب من التناول . و يشهد على ذلك "المسدي" في مواطن أخرى في كتاب سماه " بين النص و صاحبه " في دراسة للتوحيدي و نزار قباني بأن " النقد يتمتع بصلاحية الاختراق، شأنه شأن العلم اللغوي، فكلاهما قادر على أن يلج إلى كل العلوم الأخرى من خلال التأمل في بنية خطاباتها، أما المعارف التي لها الاستطاعة على اختراق حدود موضوعها نحو حدود غيرها فمحدودة، و التي منها مخول لها أن تقتحم مجال النقد فأقل عددا " (1)

فالناقد هو الواصف و الفاحص للتركيبة اللغوية و الكشف عن دقائقها و هو المكلف بالكشف عن الخصائص التي تنقل اللغة من وظيفة إخبارية إلى وظيفة فنية و على أساس الوظيفة الفنية تتحدد المقاييس الإبداعية.

لأن القراءة العفوية للرسالة تختلف عن القراءة الفاحصة، و لكن في كلا القراءتين تندمج ظاهرة م عممة سماها " المسدي" بالتأثيرية ' ، على هذا الاصطلاح يستقر تماز ج ذاتين هما : تعبيرية الباث و انفعالية المتقبل، أما تعبيرية الباث فهي تمثل عنده المحو ر الفني الأدائي المخصوص بالكاتب، و انفعالية المتقبل هي المطلق عليها بالتأثيرية، و من هذه الثنائيات– الفني و النفسي، التعبيري و الانفعالي – المتناظرة تنكشف لنا المشخصات الواقعية و الأفعال الإنشائية في " بوتقة واحدة" .

أما المنظور الثاني هو مجال البحث في النص من خلال قارئه و هو العنصر الذي يشمل علم الجمال الذي حقق أبعاد نظرية كثيفة و هو مبحث جماليات التلقي.

---

(1) عبد السلام المسدي : بين النص و صاحبه ، ط 1 ، دار قرطاج للنشر و التوزيع ، تونس ، 2002 ، ص 6 .

" و من هنا نستنتج أن للعمل الأدبي قطبين، و يمكن تسميتهما بالقطب الفني " artistique" و القطب الجمالي " esthétique" ، أما القطب الفني هو نص المؤلف، و القطب الجمالي هو التحقق الذي ينجزه القارئ. و بالنظر إلى هذه القطبية، فإنه من الواضح أن العمل نفسه لا يمكن أن يتطابق مع النص، أو مع وجوده الفعلي و لكن يجب أن يقع في مكان ما بين الاثنين.

فالعمل الأدبي من حيث طبيعته م وجود وجودا فعليا و بشكل محتوم، كما لا يمكنه أن يختزل إلى واقعية النص، أو إلى ذاتية القارئ. و من وجوده الفعلي هذا تنشأ ديناميته، و حين يمر القارئ بمنظورات متنوعة يعرضها النص، و يربط نظرات و نماذج مختلفة بعضها ببعض، فإنه يحرك العمل، و يحرك نفسه أيضا".(1)

و في هذه الحالة لا بد أن نعمد إلى تفاعلات القطبين في تركيز كلي بين هذا و ذاك، للكشف عن التفاعلات الأساسية بينها. و لكن شيئا فشيئا اتضح مدى النسبية في التركيز على كل من واضع النص و قارئه و لم يبقى للنقد إلا " الانكفاء على النص و اتخاذه المنطلق و الغا ية في العملية النقدية ، فانفتح باب اقتران العمل بين وظيفة الأدب و مختلف وظائف اللغة، و تأكدت حاجة النقد إلى الخبراء بشأن نواميس الظاهرة اللغوية في تركبها و أدائها" (2)

و يقصد بالخبراء في هذا القول، اللسانيون، الذين كان لهم الفضل في إبداء الطابع الإبداعي على التجليات اللغوية على يد الزعيم " دي سوسير" فاللغة عنده هي : " منظومة الصور الاجتماعية العامة التي تشتمل على خزين القوانين الشاملة التي تغطي مختلف مظاهر التحليل اللغوي ...و هي الشبكة العامة التي تغذي مختلف مصادر الاستعمال الفردي " (3)

فاللغة منظومة و عبرها يتم الانطلاق إلى الدراسات في ظل هذه اللسانيات التي يك ون لها الفضل في إنقاذ النقد الأدبي، من الملابسات التي لطالما عانى منها، و كان هذا العلم بمثابة الكاشف، لمداخل اللغة الواسعة و إضوائها ليبصر الناقد مسالكها، فيعرج إلى النص الأدبي عبرها.

---

(1) سوزان روبين سليمان ، انجي كروسمان : القارئ في النص ، ترجمة حسن ناظم و علي حاكم صالح ، ط 1 ، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، 2007 ، ص 129 – 130 .

(2) عبد السلام المسدي : في آليات النقد الأدبي، ص 46 .

(3) رومان جاكوبسن ، موريس هالة : أساسيات اللغة، ترجمة سعيد الغانمي ، ط 1 ، 2008 ، ص 10 .

و بالتالي يشير الباحث إلى أن تجديد هذه النظرة الأدبيق باستقراء النقد للمفاهيم الأدبية بمعزل عن المؤلف و المتلقي، تفرضها علينا المنطلقات المنهجية الحديثة، التي تأخذ بالأسباب العلمية في تحديد المقياس الإبداعي في النص ، و يسانده في ذلك " صلاح فضل" عندما نادى بشعار موت المؤلف:

" ألا تصبح البيانات المرتبطة بالمؤلف هي جوهر الدراسة النقدية للأدب أو هي نقطة الارتكاز الإستراتجية، الموجهة للعمل التحليلي النقدي، بل يجب أن تكون نقطة الارتكاز هي من النص ذاته، فقد كانت مقولة موت المؤلف، كناية بلاغية من هذه الإستراتجية الجديدة" .(1)

و لكن إذا عزلنا كل من الباث و المتلقي عن هذه الإستراتجية، فهل يعني هذا إلغاء السياقات و إسراف في حقها، بدون أن يوظف السياق أبدا في فهم النص، و بتعبير آخر كيف يمكن إدراك طبيعة النصوص دون اعتبار السياقات المتعددة للنصوص الأدبية ؟.

• *العلمية و آليات المنهج في النص*

يفسر " المسدي" ظاهر النص الأدبي أنه يتوسل بالمنهج أكثر مما هو خيارا مبدئيا له، و أن البعد الوظيفي في الأدب، كامن في ذات اللغة، و يخلص بذلك في الإشارة إلى "شارل بالي" الذي تشبع كثيرا بأراء "دي سوسور"على أن الطاقات التعبيرية تتفجر في ذات اللغة النصية، لتتكشف من الكمون إلى الوجود الإنجازي، و هذا ما يقارب أيضا السند النظري لـ:"جوليا كريستيفا التي بدأت عوالمها من النظرية اللسانية انطلاقا إلى تحديد الكتابة الأدبية مع جماعة "تال كال" (النقد الجديد)، فالمتحقق الإنجازي و الكامن عند "بالي" ، ما يقابله في فكرة الاستبدالات التي وضعتها: النص الظاهر phénotexte الذي مقابله الإنجازي و النص المولد génotexte و مقابله الكامن.

و هذه الفكرة في تحديد مفهوم النص، صاحبت النقد الحدي ث بقدر كبير، في مسيرته إزاء البحث اللغوي. و حاولت قدر الإمكان الكشف عن النزوع العلمي في جعل النقد الأدبي يتبع المنهج، بالمعنى المطلق البعيد عن فكرة المذهب، الأقرب إلى أن يكون إيديولوجيا، و المقيد بالمبادئ التي لا تقتصر على الأدب.

---

(1) صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر، أفريقيا الشرق، المغرب ، 2002 ، ص 79 .

لذلك حاول كل من " سوسير" و أتباعه إلى الالتزام بالمنهج المرن الذي يقترن بصفة العلمية، بعيدا عن المسلمات و رفض الحقائق، استنادا إلى نظرية العلم التي كان يطلق عليها أيضا "بالتكذيبية" لأنها تعتمد حركية مستمرة و ما هو تكذيب فهو من قبيل الحقائق، و هو ما يقابل مبدأ الشك عند " ش.س.بورس" في معرض تناوله " التداولية كطريقة علمية لتثبيت الاعتقاد فالقابل للغلط الكامل هو مهم في تحقيق البورسية : كما يجب مراجعة اعتقاداتنا المتمثلة في " الاعتبار العالي "haute estimé " في مقولته:

« le plus grand danger n'est pas de trop peu croire, mais bien de croire trop » (1)

ليقصد بأنه من الخطر أن نتمادى باعتقاداتنا بالإثبات الكلي و الكثير ، ثم يواصل في إخضاعه طرق لتجارب – لأن كل شيء عنده يخضع للتجربة – لاعتماده مبدأ الشك، للوصول إلى المعرفة، و النتيجة هي فشل كل الطرق منها: التسلطية " méthode d'autorité" ، و المتماسكة (ténacité)، و البدائية " dite à priori" ثم يخلص إلى تفوق الطريقة العلمية على أنها الوحيدة القادرة على الإجابة، تأخذ التجربة بطريقة جدية. لا تقارن مع المذهب الواقعي لـ "Hegel" أو التصوري لـ "Berkeley" .

فحقيقة العالم الخارجي لا يعني شيء آخر سوى تجربة الواقع لدى " بورس" تتخذ عنده مظهرين: الأول للملاحظة و الأخرى للمقارنة، و هذا ما يمثل عند " المسدي" الازدواجية التي تحدث عنها في قوله: " لا يعني التمييز بين المجالين حسما قاطعا بين الطرفين، و إنما يعني أن المدخل المنهجي يختلف من موقع لآخر، و باختلافه تتفاصل المقاييس المعرفية بشكل مبدئي" (2) . فهذا التفاصل في المقاييس، هو ما يقابل عند " بورس" النقد و الإدراك باحترام التسلسل الاستدلالي حسب ما تفرضه المعرفة في جمع هذه الازدواجية في مرحلة واحدة

---

(1) Clodine tierdelin : C.S pièce et le pragmatisme, presses Universitaire de France, 1er édition, Paris, 1993, p 89.

(2) عبد السلام المسدي: في آليات النقد الأدبي ، ص 37 .

ليست مستنتجة نظريا من قبل، لكن يجمعها بطريقة معقدة (sophistiqué)، و هذا الجمع يقوم على أساس المنطلقات المنطقية للبحث عن الحقيقة بطرق علمية استدلالية تقوم على ثلاث عناصر أساسية هي : الاستقراء (induction) ثم القياس بالفرضية (abduction) و أخيرا الاستنباط (déduction).

و انطلاقا من هذه العناصر تخلص الباحثة إلى أن الحقيقة العلمية على المدى البعيد لا تتحقق إلا إذا استعانت بهذه الطرق الثلاث لأنها من مقومات البحث العلمي .(1).

و يستكمل " المسدي" الظاهرة على أن " معيار الدلالة هو العمود الفقري لإبداعية اللغة، فإجراء التحول الدلالي باستخدام قرائن المجاز المتداولة أو ابتكارها في اللحظة المباشرة هو الرحم الفسيح الذي تتخلق فيه اللغة الشعرية منذ تولدها و إلى أن تكتمل صورتها عبر المراحل الجنينية المتعاقبة" (2)

إن المسدي في هذا المجال يضفي نوع من الانفتاح النصي، و ذلك باقتران العمل الإبداعي الأدبي مع مختلف وظائف اللغة، و ما يربط بينهما هو ذلك العدول أو الانزياح، المتضمن في الدراسات الأسلوبية التي أشرنا إليها في مواطن سابقة، و قد ساهم كل من "جاكوبسون" و"جورج مونان" و "تودوروف" في إثراء مفهوم هذا الانزياح، حتى تبين أكثر مع "ريفاتير" ولكن الإشكال الذي لم يحسم في أمره، هو مسألة انتماء النص، فإن كان يقوم – الانتماء النصي – على أساس الانحراف فما هي المقاييس التي تحدد النسق المرجعي أو النسق المنزاح، أثناء المسافة التي يجريها صاحب النص على النص ؟ و هل يكون الانطلاق في هذه المرجعية النسقية من "الدرجة الصفر" من استخدام اللغة حسب "رولان بارث" " حيث لا مقصد من الكلام إلا التعبير عن الحاجة الحيوية إلى التوسل به" (3)

و هذا المقياس على حد تعبير " المسدي" : " قد ضاق به الإنجاز التطبيقي أيما ضيق" (3).

---

(1) cludine tiercelin : C.S. pierce et le pragmatisme, presses universitaires de France, 1er édition, paris, 1993, p 83-101.

(2) عبد السلام المسدي: "في آليات النقد الأدبي ، ص 52.
(3) المسدي المرجع نفسه ، ص 51.

فانتماء النص إلى نظام اللغة يفترض إجماع بين كل الأطراف النقدية على عملية النسق المرجعي و أن تكون المسافة بين النص و النسق المعد ول هي مسافة واحدة. و هذا التناول يحيل إلى أن اللغة تقوم على الثبات، و هذا غير منطقي لأنه حتى و إن بدت أطراف الجهاز اللغوي على السطح البادي مستقرة، هذا لا يعني السكون لأنها في حركة دائرية تتميز بالاستمرارية التي لا تنكشف في بنيتها السطحية، و إنما تعمل في العمق.

لذلك صرح "المسدي" بوجوب تقدير معايير ال تباعد أو التقارب الزم ني بين النسق المعدول به و المعد ول عنه، و هذه المعايير هي: زمن النص و القارئ و الناقد، لأن لحظة الإقبال على النص تتطلب مراعاة: المسافة الفاصلة منذ نشأته عبر ولادته، و لحظة إقبال القارئ عليه للكشف عما يتشخص فيه من مظاهر اللغة : " فالاعتماد على نظامية اللغة التي على أساسها يتم ضبط انتماء النص يتطلب التوغل في نواميس الجهاز اللغوي على مستوى تطور كياناته الذرية" .

فهل هذا المنظور، إلى مقياس قارئ الأدب و مقياس واضع الأدب يلم في ضبط انتماء النص، من خلال نظامية اللغة؟

سنرى مع " المسدي" لاحقا في مباحث لسانية يستكمل فيها الحلقة الفارغة التي خلفها الباث و المتلقي إلى حلقة وسيطة تتحدد من وجهة ثانية بين عالم اللغة و ناقد الأدب.

المبحث الأول

• المباحث اللسانية

_ المباحث اللسانية عند المسدي

1/ اللغة و المعرفة العلمية

2/ التفكير اللساني في التراث العربي

3/ نظام اللغة بين المعيار و الاستعمال

4/ الزمانية و الآنية عند الباحث

5/ قضية اللغة و ما وراء اللغة عند المسدي

6/ اللسانيات و تعليم اللغات

7/ التوليد اللغوي في اللسان العربي

8/ بين المعرفة الموضوعة و اللغة المحمولة

9/ العلامة و نظام اللغة

*** محمود المسعدي و إيقاع اللغة**

- المباحث اللسانية عند المسدي

1/ اللغة و المعرفة العلمية:

اتضح مما تقدم بيانه في معرض تحليلنا موضوع الباث و المتلقي و انتماء النص الأدبي أن التفكير اللغوي يتأسس على مبدأ التنظيم القائم على اعتبار اللغة جهازا مكتملا يختص بأنماط من التركيب الذي يتحدد بسياقه عن النصوص الأخرى التي تكسبه ذاتية مستقلة، و يتمثل هذا النسق

في اجتماع الوحدات الصرفية و النحوية و الدلالية و الأسلوبية في الجهاز اللغوي، و انطلاقا من هذا الأساس يستعرض " المسدي" جملة من القضايا الموصولة بهذا الموضوع الضخم

و هو التساؤل في طريقة تفكيرنا إزاء اللغة البشرية ، و هل ينظر إليها على أساس أنها لغة لا تقف وظيفتها على تحقيق التواصل؟ فإذا كان الأمر كذلك لا يمكن الوصول إلى اكتشاف الوجود لأن "اكتشاف أسرار اللغة هو الذي يعيننا على اكتشاف الوجود، ليس ما نقوله جزافا، وليس هو من البدع، و لا هو من طفرات الذات الحالمة، و غير مجد لنا أن نظن بأنه من تيه العقل إذا عقل، و إنما هو تبصرة بالذي تدركه النفس و يعز عليها أن تظن به لأنه من خالص جوهر العلم" (1).

فإذا حاولنا استقراء هذه الفقرة فإننا نستثمر صورة هائلة من المعاني الدالة على أسرار اللغة البشرية، و ما يكتنفها من غموض، فإننا لا نشعر في ممارسة اللغة بمعابر المعرفة التي نمر عليها. لذلك نحن نعرف أننا نفكر، و نحس من خلال اللغة ، و لكن الذي لم يستقر في الأذهان حتى الآن هو أن معرفة الوجود و الأشياء يقف على اكتشاف أسرار اللغة و هي فكرة انطلاق اللغة من المعرفة بالنفس و هو "طور الحقيقة الذاتية "، إلى طور آخر و هو طور العلمية و هو الجزء الخارجي في هذه العملية، و المسافة الموجودة بين الحقيقتين هي في حلقات تسلسلية لا يمكن القفز على إحداها.

(1) عبد السلام المسدي: مباحث تأسيسية في اللسانيات، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر و التوزيع، تونس، 1997 ، ص 9 .

و هذا من صفات العلمية و على هذا الأساس أسست اللسانيات جملة من المعارف، النظرية و التطبيقية. فنالت الشهرة باعتمادها الدراسة العلمية للغة " فاستوعبت علوم الإحصاء و قواعد الإخبار و تقنيات الاختزان الآلي حتى أرست بمركبتها على ميناء المعلوماتية و اتخذت مشروعيتها المطلقة في مجال الذكاء الاصطناعي" (1)

فليست اللغة جهاز يقتصر على تعليق لفظ بمعنى ما و لكن هي حسب الباحث تصنع العالم و تبني الفكر . فهل يكون الباحث أهمل الجانب الفكري للإنسان في هذا الضرب بحمل اللغة لكل

هذا العبء . و على هذا الأساس " فإن اللغة ليست الأداة التي نفكر من خلالها، بل هي الأداة التي نفكر بواسطتها، إن لم تكن هي التي تفكر فينا، أو هي التي يفكر فينا من خلالها" (2)

و الحاصل أن غاية ما بوسعنا أن نثبته من وجهة عملية هو حصر جماع الاستعمالات الجائزة و المحتملة بالنسبة إلى وحدة اللغة . و لكن ما يعمل " المسدي" على إرسائه من الناحية المنهجية هي ثنائية التفرد و الشمول، و في هذه الصورة يحلل كيف أن التأليف ينصهر في المنهج اللساني و معنى ذلك هو أن جميع الروابط و المركبات المؤلفة للظاهرة اللغوية بين تفكيك وتركيب من الكل إلى الأجزاء و من الجزء إلى الكل هو ما يحدث التفاعل حسب الضرورة التي يقتضيها البحث.

لذلك تتميز اللغة بطاقتها على توليد عدد من الاستعمالات داخلية و خارجية لا تحصى انطلاقا من هذه السمات الوظيفية في ضرب من اللعبة القائمة بين أجزائها على منطق تحكمه التآلفات بمنظور علمي مخصوص في ظل المنبع اللساني الذي يقود حركة الفكر بطرق منطقية أساسها الاستقراءوالاستدلال للكشف عن مكامن الغموض في التأسيس للمعرفة و إخصابها باتخاذ اللغة مادة لها و موضوعا في الوقت نفسه .

---

(1) عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر و التوزيع ، تونس ، 1997، ص 12.

(2) أمبرتو إيكو : العلامة، تر سعيد بنكراد، سعيد الغانمي، ط 1 ، المركز الثقافي العربي، 2007، ص224 .

2/ التفكير اللساني في التراث العربي

إن المنظور العربي للسانيات حسب "المسدي" مازال يتصارع مع الحداثة مرده في ذلك هو الالتباس الحاصل في الحضارة العربية سواء كان ذلك من ناحية الصراع المنهجي الذي لم يأخذ بالمعارف الفكرية المعاصرة بطريقة يحكمها امتداد و قد نستحضر ما يشير إليه كل من "سعيد يقطين" و "فيصل دراج" في الثنائية الأخيرة حول قضية الامتداد و الانقطاع. على أننا نتبع

طريقة غير منظمة في استقاء المعارف بالقفز من ظاهرة إلى أخرى ، فيلتبس علينا الأمر في فهم هذه الظواهر، و هو ما يقابل عند " المسدي" : "الاتصال و الانفصال" .

و من ناحية ثانية القراءات التراثية التي تقوم على حد "الملك الحضوري" في القراءة، وعدم مسايرة العرب في قراءاتهم المنهجية العلمية الراهنة أي عدم التفتح إلى التأويلات المناسبة في الاستعمال، بحيث استجاب لذلك "عبد الكريم شرفي" بوصفه الانفتاح المفرط " هو الأمر الذي جعل الجدل المعاصر جادا بشأن التأويل يتركز حول المعايير و المقاييس الموضوعية التي تمكننا من التمييز بين التأويلات "المناسبة" للنص، و التأويلات "السيئة" و "غير المناسبة " mésinterprétations أو تلك التي تظهر أنها مجرد "استعمال" خاص للنص حسب أهداف المؤول المعلنة أو غير المعلنة، و في هذا الإطار بالضبط يندرج مشروع امبرطو إيكو " (1)

لذلك فقضية التفسير اللساني عند العرب لم تقف على المبدأ المنهجي في التفكير اللغوي والنظر في نوعية هذا التفكير في شأن الكلام.

" فالقضية إذن مردها قدرة أمة على تجاوز ضبط لغتها و تقنينها لإدراك مرتبة التفكير المجرد في شأن الكلام باعتباره ظاهرة قد أدركت تلك المرتبة : فكر أعلامها في اللغة العربية فاستنطبوا منظومتها الكلية و حددوا فروع دراستها بتصنيف لعلوم اللغة و تبويب لمحاور كل منها فكان من ذلك جميع اتراثهم اللغوي في النحو و الصرف و الأصوات و البلاغة و العروض، ولكنهم تطرقوا إلى التفكير في الكلام من حيث هو كلام أي في الظاهرة اللغوية كونيا" (2) .

---

(1) عبد الكريم شرفي: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ط 1، الدار العربية للعلوم- ناشرون، 2007 ، ص 55 .

(2) عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات ، ص 30.

لذلك كان الاهتمام منصبا على تجسيد اللغة في أنماط من الكلام، فليست هناك أبحاث مختصة في فروع الدراسة اللغوية، و هي التي سماها بالنوعية، و يذكر الباحث بأنه لو لا هذا الحاجز الاختصاصي النوعي الذي عرقل تناول الفكر اللغوي العربي، ستكون النتيجة أفضل بكثير بفضل اليقين الذي مارسته الحضارة العربية الإسلامية خاصة في قضية التفسير القرآني .

فالنص القرآني رسالة لسانية في حد ذاته . و في النظر إلى أ نه نزل تحديا و إع جازا لحضارة البيان إلا أن البحوث كانت مستمرة للكشف عما يقتضيه من وجوب لأنه لا يقبل الاحتمال و الإمكان و يقول الباحث ربما كانت هذه الخطوة مردها الخوف من العقاب في الآخرة مما قادهم إلى الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة اللسانية :

" فالعرب بحكم مميزات حضارتهم و بحكم اندراج نصهم الديني في صلب هذه المميزات قد دعوا إلى تفكر اللغة في نظامها و قدسيتها و مراتب إعجازها فأفضى بهم النظر لا إلى درس شمولي كوني للغة فحسب، بل قادهم النظر أيضا إلى الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة اللسانية مما لم تهتد إليه البشرية إلا مؤخرا بفضل ازدهار علوم اللسان منذ مطلع القرن العشرين، و هذا ما يمكن استقراؤه بالكشف النصي و الاستدلال الضمني "(1)

و هذا الكلام نؤوله إلى أن الدراسات العربية سبقت عصرها من وجهة السياق العقائدي،وما ينقصها إلا الحركة في كليتها و الغوص في قضايا فلسفة اللغة و نظرية المعرفة، في "بوتقة التفكير اللساني الحديث" التي أساسها المنطق و منابعها النظرية و استقرائها المنهج نحو العنصر التداولي على مستوى اللغة الإنسانية بالعكوف على فحصها.

---

(1) عبد السلام المسدي: مباحث تأسيسية في اللسانيات، ص 31 .

3/ نظام اللغة بين المعيار و الاستعمال

غايتنا من تناول هذا الموضوع هو إبراز المبادئ النظرية العامة لنظام علاقة بين المبحث اللغوي و النقدي . على النظر في أصول المعرفة محاولين في ذلك إثبات التحاليل التي أجراها

"المسدي" على المادة اللغوية، لذلك فهو يوفر لنا مادة : خصبة في اتخاذ الحد اللغوي إبيستيمية خاصة، و كيفية انتقال هذا الحد من المعيار إلى الاستعمال و الوظيفة، بعد أن كان الفكر اللغوي عند الأسلفين يتبع المسلك المعياري للغة بانحصار الأداء اللغوي في حدود الظاهرة الكلية و أي انحراف عن هذه الحدود يعد تسلط على اللغة و بدعة. نسبة إلى مبدأ المحافظة على "صفاء" اللغة و إبداء المواقف التقويمية تحت شعار : إرجاع المنحرف و استقامة المعوج، و كل ه ذه المواقف آنية تقود إلى السكون.

و انطلاقا من تصور القدماء للفكر البشري القديم و هو الحكم المعياري على الظاهرة اللغوية يبين "المسدي" النقلة النوعية من المعياري إلى الاستعمال من منظور لساني معاصر بإرجاع ذلك إلى أصلية للزمن و أصلية للاعتبار و إذا وقفنا على هذا التساؤل المبدئي فإن محاولة حله تقودنا بالضرورة إلى أن نعرج على القضية التي تندرج ضمن عا ئقات البحث اللساني، إلا أن "هذا الإشكال المزدوج لا يتسنى إلا بأن ندخل في عوامل تقدير ثنائية الآنية و الزمانية باعتبارها أداة توسل منهجي يفضي إلى صقل المنظور المعرفي، فالحقيقة العلمية التي لا مراء فيها اليوم هي أن كل الألسنة البشرية ما دامت متداولة فإنها "تتطور" و مفهوم التطور هنا لا يحمل شحنة معيارية لا إيجابا و لا سلبا، و إنما هو مأخوذ في معنى أنها تتغير إذ يطرأ على بعض أجزائها تبدل نسبي في الأصوات و التراكيب من جهة ثم في الدلالة على وجه الخصوص"(1)

لذلك استعمل "المسدي" طريقة مقارنة بين الأثر التاريخي و الأثر اللساني المعاصر في دراسة تعاقبية تشمل المعياري و تع يد الاعتبار للأصلي، و هو الإستعمالي لأن "الاستعمال من حيث النشأة في الوجود يسبق المعياري" (2)

---

(1) عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات ، ص 133.

(2) المرجع نفسه، ص 132 .

لأن الظاهرة اللغوية في أصلها حقيقة قبلية وجدت قبل أن يضع العلماء علمهم لذلك اتبع "المسدي" طريقة التحليل في زمن محدد لينتهي على مبدأ التعاقب و هذا ما يوازي فكرة "البشير بن عمر" حول الرافعي، بقوله : " تفسير الظاهرة قائم على مبدأ التعاقب، أي على النظر في

الظاهرة كما كانت ليرى كيف أصبحت، في حين أن تحليل الظاهرة في ذاتها في زمن محدد – بصرف النظر عما سبق و لحق – يعتبر من قبيل التزامن" (1).

" لذلك نستطيع أن نحل المنهج الاختباري محل المنهج الحتمي في تقدير صيرورة اللغة عبر الزمن، و هكذا يتلخص انقلاب الأسس المعرفية من فلسفة ماهية، اعتنقها فقه اللغة القديم " (2)

لأن اللغة رمز يكتسبه الفرد من محيط ثقافي معين في وقت معين إلى محيط آخر في وقت آخر لأن "الرمزية اللغوية لها طابع خاص، نظرا لأن الفرد يكتسبها بواسطة احتكاكه بمحيطه الثقافي، و يمكن التحكم فيها كلما أصبح في وسعه إدراكها" (3)

فالحديث عن اللغة لا يمكن إلا عن طريق اللغة و هذا ما يحدد الانتقال من الوجود "الطبيعي" إلى الوجود "المعقلن" و هذه العقلنة يقصد بها الباحث الدراسة النحوية للغة للانتقال من النزوع الثابت إلى التغير و التبدل لأن العدول عن " القاعدة" السكونية اتجاها نحو الحركية لا يكون إلا إذا جمعت اللسانيات بين المبادئ النحوية ، بالرغم من أ نه أسبق للدراسة اللغوية فاللسانيات لا تنفي علم النحو و لا تنقضه، بل إن وجودها متوقف قطعا على وجوده إذ لا معنى للبحث اللساني ما لم نستنبط نظام اللغة عن طريق استخراج مؤسستها النحوية" (4) .

و من ذلك ينتج نظام لغوي يضغط فيه المعيار بوزنه داعيا إياه إلى الحركة و الحيوية، فالظاهرة اللغوية بقدر ما هي امتثالا للإقتضاءات الخارجية هي أيضا مواضع و أسرار تحمل أبنية داخلية و بهذا التحليل يجمع الباحث بين النشأة و التحول و بين الاستقرار و الامتداد و أخيرا بين المعيار و الاستعمال.

---

(1) البشير بن عمر : الفكر الأدبي عند العرب في العصر الحديث، تقديم الباردي، كلية الأدب و العلوم الإنسانية، تونس، 2002، ص 37.

(2) عبد السلام المسدي: مباحث تأسيسية في اللسانيات، ص 132.

(3) سمير سعيد حجازي: مناهج النقد الأدبي المعاصر، ط 1، الأفاق العربية، مصر، 2007، ص 53.

(4) المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات ، ص135-136.

4 / الزمانية و الآنية عند الباحث

حرر " المسدي" عن المقولتين في مواطن مختلفة من كتبه، أوضح المفاهيم حول العلاقة بين السنكرونية و الدياكرونية أو الآنية و الزمانية . قد يكون السبب في ذلك اهتمام "سوسير" في

جزء كبير من أبحاثه بالمقولتين على أساس أنهما يشكلان قسما من أقسام اللس انيات، أو ربما توضيح القضية في نمائها و سعيها على أحسن وجه و يشهد على ذلك بقوله:

" إنه من المفيد في هذا المقام التذكير بأن المنهج الآني الذي قامت عليه اللسانيات المعاصرة و تولد عنها بموجبه المنهج البنيوي ليس إلا مصادرة من المصادرات، هو مصادرة منهجية في البحث لأن الآنية في حقيقة أمرها لا تنفك عن الزمن و لكنها تستند إلى زمن افتراضي يرمز إليه بنقطة على المحور الزمني المتعاقب، إلا أن حيز هذه النقطة قد يكون يوما أو سنة أو عقدا أو قرنا أو عصرا من العصور، فالآنية ليست إقرار بالزمن و لا نقضا له و إنما هي استيعاب لأبعاد "الزمانية" في تجمعها، فهي تعكس المنطق الصوري للأحداث لأن الزمانية تبدو متركبة من سلسلة نقط الآنية، أي إن الزمانية تحتوي الآنية، فإذا بالآنية تستحيل منهجا مستوعبا لأبعاد الزمانية بمقتضى أنه يدك الحواجز التطورية فيصهر التعاقب في بوتقة التواجد" (1).

و هذا معناه أن الباحث يلم بتكامل المقولتين و يوضح كيف أن الزمانية تحتوي على الآنية مبرزا ما في الآنية من دلالة زمانية، فإذا به يستنتج من ذلك علاقة تكوينية.

" فإذا كانت الزمانية تحاول التوسل بالزمن الطبيعي .....و كان النحو يتوفي سبيل الزمن اللغوي الذي تترتب بحكمه أجزاء الكلام في غير تطابق ضروري مع منطق الزمن الطبيعي.فإن مقولة الآنية تستند إلى الزمن "التقديري" الذي هو زمن افتراضي لأنه زمن منهجي لا غير" (1).

و الزمن التقديري في هذا الضرب هو جوهر الفكرة البنيوية، و لكن سيظل ناقصا إلا إذا التحق بالتطابق مع الزمن الطبيعي- التوسل به. و على هذا الحد يحدث التصاهر الأولي فيما بين اللسانيات و البنيوية.

---

(1) عبد السلام المسدي: مباحث تأسيسية في اللسانيات ، ص 211

" غير أن اللسانيات في نمائها و سعيها إلى الاكتمال كأنها أدركت نسبية القيم في تعارض المقولتين بل كأنها أدركت أن الزمانية "قضية" و أن الآنية "نقيضة" فأحست بأنها مدفوعة إلى البحث عن "التأليف" حسب الثلاثية الجدلية، فالزمانية، قد أخفقت في مشروعها المعرفي يوم اختطت لنفسها غاية ا بتعاث اللغة البشرية الأم من غيابات الوجود الماضي، و الآنية قد أنكرت

الزمن و تجاهلت فعله فأمهلها ثم غافلها حتى أظهرها على تناقض أمرها و عندئذ بدأ منعرجها إلى المأزق المعرفي" (1).

ذلك أن اللسانيات استقامت في آخر تحولاتها المعرفية تترصد البعد التكويني و هو البعد الثالث أو ما سماه "جدلية ثلاثية" بمعنى الانطلاق من المقولتين نحو مقولة ثالثة، و هي التكوينية أو النشوئية التي تطل من وجهة الباب الواسع و الأ رحب أمام الأبحاث المتمازجة الاختصاصات من قضايا الاكتساب اللغوي، و التحصيل الإدراكي. و يشهد على ذلك الدكتور "يوسف وغليسي" في مقام من كتابه حول هذا البعد الثالث في ما سماه "بنيوية تكوينية تسعى إلى إقامة تناظر (Homologie) بين البنية النفسية و البنية الذهنية للفئة الاجتماعية التي يستوحيها النص" (2).

"و هكذا لم يعد البحث في أصل اللغة على معنى الإطلاق، و إنما أصبح مداره في أصل نشأة الحدث اللغوي على لسان الفرد" (3) .

و عن "جمال شحيد" يشير إلى حقيقة أصبحت مسلمة عند" قولمان" في مواطن كتاب "المسدي" ' قضية البنيوية' "و هي أننا لا نستطيع أن نعزل أي عمل أو أية مسألة نظرية من السياق الثقافي الذي نشأ فيه هذا العمل و ترعرع و تطور ضمنه، و يضيف إلى ذلك أن كل مسألة خاصة يجب فهمها من خلال الإطا ر العام المحيط بها أو من خلال تاريخ المجتمع الذي نشأت فيه."(4). وبهذه الطريقة يمكن الكشف عن كل الخصوصيات التي تحيط بالظاهرة اللغوية، سواء كانت كامنة أو بدافع عوامل خارجية و معنى ذلك حسب ما يقتضيه السياق في مقام القول.

---

(1) عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات ، ص 211 .

(2) يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح ، ط 1، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008، ص 146.

(3) المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات، ص 212.

(4) المسدي : قضية البنيوية، دار الجنوب للنشر، تونس، 1995، ص 147-148.

5/ قضية اللغة و ما وراء اللغة عند المسدي

يتحدث "المسدي" في دراسته الحاملة عنوان "مساءلات في الأدب و اللغة" عن قضية اللغة و ما وراء اللغة بحيث شبه هذه الظاهرة بالمعادلة الرياضية و كلنا نعرف أن المبدأ في هذه الأخيرة

هو السعي إلى الانتقال من المعا ليم إلى المجاهيل بعمليات حسابية " و في خانة المعلوم نصادف المنصوص عليه و المستشهد به، و الذي فرغ الناس من تفصيل القول فيه، كما نصادف الساند، والمتعرف به، و الذي كرسه الاستخدام، و تواطأ الجمهور على التسليم به" (1) .

و على هذه الخانة تقوم خا نة المجاهيل و هي "عناصر خفية : تزحجب بفعل الفاعلين حينا وقد لا تزحجب و لكن الناظرين لا يبصرونها " (1)

و المهم في هذا هو أن "المسدي" شبه المعرفة اللغوية بالرياضيات لتوضيح كيف أن الفكر يفتش عن الدلالة الباطنة و الإيحائية للظاهرة اللغوية، كما يفتش الرياضي عن المجاهيل السينية في المعادلات الجبرية، كما أن الباحث استعمل المجاز بترك الموضوع الذي يريد التحد ث عنه ليلجأ إلى موضوع آخر لكنه تابع للمعنى الذي يريد التحدث عنه ليبرز من الدوال ما يفيد إذا غاب أكثر مما كان يدل لو استقام حاضرا، و هو الكشف بطريقة رياضية عن الظاهر الذي يخفي الكامن والمستتر الذي يظهر على السطح البادي الذي لا يملك ألفاظا تدل عليه إلا بعد " هتك الحجب، وإماطة اللثام و تعرية الأستار، و لكن أقربها منالا و أكثرها على المخلوقات نفعا أن تعرف أن منظومة المعاليم – في الثقافة – هي نص اللغة، و إن منظومة المجاهيل هي ما وراء اللغة و ليس البحث فيها إلا بحث في الخلفيات المعرفية". (2)

فالخلفيات المعرفية هي المقام المستتر في هذه الدراسة، حتى و إن كنا نفكر بأننا ننطلق من خلفيات معرفية معينة لاستقراء الظواهر و استنتاج الدلالة المنطقية و الحقائق الحاضرة في النص إلا أن "المسدي" يفسر ذلك بأن هذا الفكر الكامن في الدلالة المنطقية يتحول من وضع إلى وضع آخر و ذلك بتحول الحقائق الحاضرة القائمة على الأساس المنطقي- و هو دائما يعود إلى المنطق العقلي الأقرب إلى المنهج العلمي . و الدليل على ذلك التحليل الرياضي، و هو الأسلوب القريب للعلمية – إلى حقائق غائبة و هذا عن طريق المسالك العقلية .

---

(1) عبد السلام المسدي : مساءلات في الأدب و اللغة، ط1 ، الرياض، 1994 ، ص 98.

(2) المرجع نفسه ، ص 99 .

و لكن قد يكون في ذلك خلل إذا نظرنا إلى ما هو معروف عن المنطق على أ نه ضبط للمعايير على أساس التحصيل البرهاني انطلاقا من الإدراك، فكيف يتحقق للباحث أن تتحول

الحقائق إلى إيحاءات مجهولة قد تنتهك التأويلات المختلفة مسالكها إلى هذا المعلوم. و بالتالي هناك من يشير إلى أنه تناقض مع الاستدلال العلمي القائم على الفكر المنطقي.

إلا أن "المسدي" فسر الظاهرة في ضرب آخر على أن المنطق " ضبط المعايير التي يختبر بها العقل مدى سلامة الإجراءات البرهانية الحاصلة لديه فيكون في غايته تلك أداة التحري بغية القبول أو النقض، و ليس البرهان فقط بالعناصر التي فيه، لكنه بها و بالكيفية التي ترتبت عليها فيما بينها و بين طيات الترتيب ي كمن ما ور اء اللغة، .. فإذا قلت (ضرب و يضرب ولتضرب) كان الضرب، و هو المصدر، قائما ماثلا حتى و لو لم تذكره." (1).

و الحاصل أن المنطق يقوم على عمليات ترتيبية . و بين هذا التراتب تكمن الحقائق الخفية مثلما يستتر المجرد خلف المحسوس، يكون ما وراء اللغة خلف اللغة، و على مق ياس المدارك العقلية، تقوم العمليات التأويلية، في غاية القبول أو النقض، استنادا إلى البرهان، و بالتالي يكون الإنجاز عملية استدلالية علمية لا تكذب إن احترمت و لا ترحم إذا انتهكت .

و يستدل على ذلك أيضا في موطن آخر على حد المجاز بقوله "في كتاب المباحث التأسيسية":

" إن الذي نعنيه بمراتب الظاهرة اللغوية هو جملة التجليات التي من خلالها يدركها العقل بحسب تصورات إختبارية متميزة .... فعالم الجيولوجيا يحدثك عن الحجارة فيكون في منزلة الظاهرة العامة ثم يحدثك عن صنف من أصنافها كأن يكون كلسيا أو طفليا أو بلوريا و عندئذ يندرج حديثه في منزلة الظاهرة النوعية، أما قطعة الحجارة، هذه التي هي بين يديه، يريك إياها فتلمسها وتحاول اختبارها " (2)

---

(1) عبد السلام المسدي: مساءلات في الأدب و اللغة ، ص 99.

(2) المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات، ص 169

لذلك فالظاهرة الخلفية تكمن بين المراتب أو تلك الجملة من التجليات التي يدركها العقل عن طريق الاختبارات التي يقيمها لجعل ما وراء اللغة جزء من اللغة . فبواسطة القرائن المنطقية

نخلص إلى جملة من المعطيات التي هي في منزلة العلامات الدالة للكشف عن مدلولاتها. فإذا ذكر الشيء كان علامة و إذا لم يذكر كان عدم ذكره في حد ذاته قرينة تقوم مقام الموجود بالمنقضي، وكما يرى "هيدجر" :

" أن المقر الفعلي للحقيقة ليس هو الفكر أو (المنطوق) لأن الحقيقة انكشاف و حرية. أو بتعبير آخر: الحقيقة هي انفتاح على الواقع و استعداد لاستقباله في الصورة التي ينكشف بها أمام الذات. و هي كذلك تعبير حر للذات في تعاملها مع الواقع". (1)

و هذا على المدى البعيد لما نحن بصدده . فانكشاف الواقع هو الجزء الخفي الذي نسعى وراءه لتحقيق "المقر الفعلي" أو الاستعداد للاستقبال، هو دور الذات في سلسلة من التأويلات لكشف حجب الوجود و يشير "المسدي" إلى نص من نصوص "تمام حسان" في كتابه "اللسانيات من خلال النصوص" :

كيف يتضح نظام اللغة من خلفيته عن طريق العمليات و المباني التي تجسد هذه المعاني على الوجود لتحقيقه "فاللغة إذن منظمة عرفية للرمز إلى نشاط المجتمع و هذه المنظمة تشتمل على عدد من الأنظمة (و قد سماها من قبل بالأجهزة) يتألف كل واحد منها من مجموعة من "المعاني" تقف بإزائها مجموعة من الوحدات التنظيمية أو "المباني" المعبرة عن هذه المعاني، ثم من طائفة من "العلاقات" التي تربط ربطا إيجابيا، و الفروق "القيم الخلافية" التي تربط سلبيا – بإيجاد المقابلات ذات الفائدة – بين أفراد كل من مجموعة المعاني أو مجموعة المباني

و كما أن "المعاني" الصرفية غير المعاني النحوية نجد "المباني" تتنوع بين فرع و آخر من فروع الدراسات اللغوية." (2)

---

(1) إبراهيم أحمد : انطولوجيا اللغة عند مارتن هيدجر ، ط 1 ، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008، ص 114.

(2) عبد السلام المسدي : اللسانيات من خلال النصوص، ط 2، الدار التونسية للنشر، 1986 ، ص 54-55.

و هذه العلاقات و المقابلات هي التي تتحدد على أساسها المعاني الخفية و هي المدلولات من المباني الظاهرة و هي الدوال، أما الانتقاء لما هو إيجابي أو سلبي فهو دور المنطق عبر

مسالك العقل (أشرنا إليها سابقا)، و إذا استبعدنا الدلالة المنطقية من ظاهرة ما وراء اللغة المتضمنة في اللغة، فإن الخطاب العلمي في هذه الحالة يجد له تصنيفا آخر ينقله إلى خطاب قائم على ما هو ظاهري كما نجده في الخطاب السياسي مثلا، حيث لا تكون المحاسبة إلا على ما هو ظاهر في الخطاب .

كما هو الحال في الخطاب الإيديولوجي و هو أن يفهم من المتكلم ما يقوله فقط لإحداث التواصل لما تقتضيه الاستجابة لمضمون اللغة " ثم تتحرك في سلوكك بما يطابق الثمرة الموجودة من الكلام حتى يكون ما بعد – و هو الفعل – على قدر ما وراء اللغة الذي هداك إليه نص اللغة".(1)

و معنى هذا أن اللغة في هذا المقام تتحدد فقط على دوالها الظاهرة لإقامة المعنى المباشر . بالإضافة إلى خطابات أخرى تستند إلى الإخبار فقط يمكنك استهلاكها مباشرة دون إجهاد حسب ما تفرضه المعلومة التي تكون لغرض التواصل، أو الإعلان أو دبلوماسية معينة، إلا أن "المسدي" يجد مخرجا آخر من هذا المنعطف "يستأنف المسكوت عنه سلطته على المصرح به...، فاللغة فيه تؤدي وظيفتها التعبيرية، و هذا مما يسلم الجميع به، و لكن انقسام هذه الوظيفة إلى طاقة تصريحية و طاقة تضمينية ليس من شائع المسلمات لدى الناس.

و أقل شيوعا عندهم أن الطاقة التضمينية – بقدرتها الإيحائية – تجعل اللغة كائنا يعبر بما لا يقوله أكثر مما يعبر بما يقول، و أن إنتاج الدلالة بواسطة كشف ما لا تقوله اللغة هو من هن دسة المتكلمين و إنجاز السامعين لأنهم جميعا مشتركون في صناعة ما وراء اللغة" (2)

و بهذا يخلص الباحث إلى أنه لا من مخرج لإلغاء ما وراء اللغة لأنها الأساس الباطن والخلفية المعرفية لما هو ظاهر، فهي بمثابة الخلية الحية في الجسد اللغوي، و انطلاقا من أسرار ما وراء اللغة بالاعتماد على اللغة في حد ذاتها نتمكن من إثراء المعرفة الثقافية و إنماء القدرات الذهنية و ترويض الملكات الإدراكية و في الوقت نفسه إحياء الرمز اللغوي على إنتاجية الدلالة.

---

(1) عبد السلام المسدي: مساءلات في الأدب و اللغة، ص 100 .

(2) المرجع نفسه ، ص 101 .

6/ اللسانيات و تعليم اللغات

اتضح في فصل سابق كيف اهتم "المسدي" بالأسلوبية في علاقاتها باللسانيات، و انتهى إلى القول باستحكام هذه العلاقة و ما إذا أمكن للأسلوبية أن تستقل بمنهجها، و تتأهل تبعا لذلك لانتصاب علما قائما بذاته منافسا للألسنية، لكن للمسألة وجه آخر يهمنا التطرق إليه في هذا الباب.

و هو المتصل بعلاقة اللسانيات بتعليم اللغات في توظيف المنهج العلمي، و أخذا بهذا المبدأ حاولنا الوقوف في هذا الجانب على ما يمكن إدراجه ضمن الإجابة عن السؤال التالي: كيف تستثمر هذه التعليمية – من وجهة "المسدي" – بما تمده اللسانيات من معارف علمية حول طبيعة الظاهرة اللغوية ؟ فلئن تطرق الدارس إلى الموضوع المعني من مداخل متعددة، فإن ما نستخلصه من كتاباته هو اقتناعه بأن ما انتهى إليه "كوردير" يحقق ثمرة أساسية فيقول في ذلك :

" و أخيرا يضيف "كوردير" أن بين أيدينا اليوم زادا ضخما من المعارف المتعلقة بطبيعة الظاهرة اللغوية و بوظائفها لدى الفرد و الجماعة، و بأنماط اكتساب الإنسان لها. و ثمرة أبحاث اللسانيين في هذا المضمار لهما يتأكد إعتباره عند صوغ البرامج التعليمية التي موضوعها اللغة. وعلى معلم اللغات أن يستثمر بما تمده به اللسانيات من معارف علمية حول طبيعة الظاهرة اللغوية" .(1)

بشرط أن لا نربط بين اللسانيات التطبيقية و تعليم اللغة بطريقة آلية " إذ من المشارب الأخرى ما يضطلع أهله بمهارات عملية للغة فيها أثر كلي، و معارفهم الحاصلة تعين على فض المشاكل الناجمة، و من هؤلاء: المختصون بعلاج عاهات الكلام، و المهتمون بدرس الخطاب الفني، و علماء المواصلات .....إلخ ".(1)

لأن معلم اللغة يستخدم النظرية اللسانية لا بطبيعة إستلزامية و لكن يستعملها بما يقتضيه الدرس، و تعليم اللغات اختصاص قائم بذاته و ليس جوهر متضمن في اللسانيات التطبيقية، إلا أن اللسانيات المعاصرة قامت على مبدأ الشمول المعرفي "فاقتحمت حوزة الاكتساب : ما اتصل منه باللغة ذاتها و ما ارتبط بالمعرفة و الإدراك جملة" .(2)

---

(1) عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات ، ص 215.

(2) المرجع نفسه ، ص 216.

و يرجع الدارس و لوج اللسانيات المعاصرة في هذا التحصيل المزدوج القائم على مبدأ الشمول المعرفي إلى ثلاثة عوامل هي :

أ - شمولية اللسانيات التطبيقية في حقل تعليم اللغات على تلقين الطفل قوانين لغته و حتى لغير الناطقين بها.

ب - الإشارات اللسانية التي تنصهر في اللغة فتجمع بين التأويلات من مقاصد و نوايا المتكلم و ما تحدثنا عنه في مواطن سابقة من " التركيب و التفكيك" ، "الباث و المتقبل" و هي كلها ضمن أفنان اللسانيات العامة.

ج - بروز علم التحكيم الآلي (السيبرنيتة) و هي الطرق التي تدرس تفاعلات الكلا م و طرق اكتسابه، و قد تحملنا هذه المعايير الشاملة إلى إثارة بعض التساؤلات التي أشار إليها كل من "علي حاكم صالح " و "حسن ناظم" في ترجمة لرومان ياكوبسون "الاتجاهات الأساسية في علم ا للغة على أن " الخبرة العلمية الثرة والشاملة للسانيات هي التي تحملنا بالضبط ع لى إثارة التساؤلات الآتية: ما المكانة التي تحتلها اللسانيات بين علوم الإنسان، وما مستقبل تعاون الفروع المعرفية المتبادلة القائم على أساس تبادلي صارم و من دون انتهاك للضرورات و الحقائق الداخلية لأي حقل موجود في هذا التعاون؟ ". (1)

فالفروع المعرفية المتبادلة في شموليتها تحقق في هذا الضرب الاستثمار الإبستيمي لقضايا اللسانيات بركائز التطور العلمي المعاصر في علوم اللغة . و يفضي "المسدي" قائلا:

" هكذا غدا طبيعيا أن تعكف اللسانيات على قضايا اكتساب اللغة و حصول الكلام فعملت على ربط مراحل هذا الاكتساب لدى الطفل بـمراحل نشوء اللغة أصلا، و حللت بوادر عملية التواصل الكلامي من مستوى الإدراك الشمولي إلى مستوى التقطيع المزدوج، و فسرت مرور الطفل بالمرحلة العلامية، و هي المرحلة الإشارية السيميائية، قبل بروز العلامة اللسانية، و دققت تراكم المخزن الصوتي فالنحوي فالمعجمي". (2)

---

(1) رومان ياكوبسون : الاتجاهات الأسياسق في علم اللغة، تر . علي حاكم صالح و حسن ناظم، ط 1 ، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2002، ص 46 .

(2) عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات، ص 217.

و قد أشار " أمبرتو إيكو " لهذه المسألة في كتاب "سميائيات الأنساق البصرية" في تقديم "سعيد بنكراد"، و هي مسألة العلامة السيميائية قبل بروز العلام ة اللسانية، "فما تدركه العين هو علامات و ليس موضوعات معزولة، و العالم تسكنه العلامات و ليس خزانا للأشياء ....فالمعنى داخلها يستدعي استحضار التجربة الثقافية كشرط أولي للإمساك بممكنات التدليل ...يحق لنا الاعتقاد إذن أن هذه العلامات هي لغة مسننة، أودعها الاستعمال الإنساني قيما للدلالة و التمثيل . فهي في جوهرها خاضعة لمبدأ التواضع (la convention)." (1).

و المهم في هذا و ذاك أن "الاكتساب أو التحصيل من المواضيع المبدئية في الدراسات الإنسانية قاطبة هو من القضايا المعرفية ذات الطابع الشمولي، سواء في توفيره نموذج تقاطع الاختصاصات و اشتراك المعارف، أو في اتصاله بقضايا التنظير التأسيسي و المواصفةالتطبيقية في آن معا" (2) .

و أشرنا إلى العلامات لأنها قاعدة التحليل السيميائي. و هي أول مرحلة يمر بها الطفل وهي قبل بروز العلامة اللسانيةة كما أشار الباحث سابقا لأن السميائيات ليست مجرد أدوات إجرائ ية يمكن استثمارها في تحاليل تعليمية قارة كما لا يمكن أن تكون نماذج تحليلية جاهزة قادرة على الإجابة عن كل الأسئلة التي ت طرحها الوقائع – و هو ما يقابل عند الدراس "نموذج" تقاطع الاختصاصات – بل على النقيض من ذلك هي تصور متكامل للعالم باعتباره سلسلة لا متناهية من الأنساق السيم يائية و هذه السلسلة هي المسؤولة عن انفلات الدلالة و تداولها فتحدث ما سماه الباحث "تراكم المخزون الصوتي فالنحوي فالمعجمي"، و بالتالي يكون قد أدمج مراحل الاكتساب و نشوء اللغة بالاستعانة السيميائية في اللسانيات المعاصرة الشاملة .

---

(1) أمبرتو إيكو : سيميائيات الأنساق البصرية ، تر محمد التهامي العماري، محمد أودادا، تقديم سعيد بنكراد ، ط 1 ، دار الحوار و التوزيع، سوريا، 2008 ، ص 10.

(2) عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات، ص 217.

و يحدثنا "عبد الملك مرتاض " : " أن مثل هذه النظرية الشمولية، تشيع كثيرا من دفء اليقين في روع الدارس، فلا تلقي به في حضن علم مستغلق المفاهيم غريب الطرح و الأ داة، بل توحي إليه باستمرار طبيعي في الحقل المعرفي .يتسم بحيرة البحث المستمر عن الأداة المثلى، والمنهج الأكمل، و تبشره بإمكانية الاستفادة، مما حصل من معارف سالفة، و أن لا يلقي بها ظهريا، بل يستحضرها دوما لأنها كفيلة بأن تمده بمفاتيح جليلة لمواصلة المشوار". (1)

فقد تأسست هذه الرؤية على ج ملة من المبادئ التي تبين التداخل بين اللسانيات و القراءة السيميائية، في التحصيل اللغوي بين التلقي و الاكتساب و ظاهرة الإدراك كيف تتحقق لدى المتقبل. فإننا "لا نولد عارفين اللغة استعمالا أو فهما، فنحن مجبولون على اكتسابها و استعمال الجهاز اللغوي لا يقتصر على ما يجري لدينا عندما نتحدث أو نفهم ما يبث إلينا و هو ما يعرف بالأداء اللغوي، و إنما يشمل كشف ما به نصبح قادرين على ذلك الأداء.

السلوك اللغوي مهارة هي من التعقيد بحيث لا يستساغ أن يكتسبها الطفل في مرحلة وجيزة.....و ينتهي "كوردير" إلى أن دراسة اللغة من حيث هي ظاهرة فردية تنصب في تفسير كيفية اكتسابها و كشف علاقة ذلك بالأنماط الإدراكية لدى البشر و بالآليات النفسية التي تقود عملية أداء الكلام و إدراكه " .(2)

و هنا يفسر " المسدي" كيف أن لدى الإنسان استعدادا في طبيعته الغريزية على تحصيل ملكة اللغة. و في الأخير يخلص في محاولة فهم الظاهرة اللغوية بلورة المنهج اللساني وما يمده من أسس التعليم على المدى البعيد ، ثم يشير إلى العالم اللساني " عبد الرحمن حاج صالح" وماله من فضل في لفت انتباه المؤسسة التربوية إلى أهمية اللسانيات.

ثم يشيرفي ضرب آخر إلى "محي الدين الغرايري" على أن " الطرق المتبعة في تعليم اللغات بالتطبيقات النظرية اللسانية ردحا من الزمن و إذا بها في هذه السنوات الأخيرة تتفطن للمتعلمين كعنصر هام في العملية التعليمية فتوليهم أهمية يتجلى أثرها فيما يستنبط من أغراض متعلقة بتحليل حاجات المتعلمين وبلختيار المحتوى المطابق لاهتماماتهم و باتباع تدرج في التعليم يوافق الخطة التي يسلكها التعلم" (3)

---

(1) حبيب مونسي : نظريات القراءة في النقد المعاصر، منشورات دار الأديب، الجزائر، 2007، ص 74 .

(2) عبد السلام المسدي: مباحث تأسيسية في اللسانيات، ص 224-225.

(3) المسدي : اللسانيات من خلال النصوص ، ص 157.

7/ التوليد اللغوي في اللسان العربي

كلنا نعرف أن اللغة تتطور و تنمو كما يتطور و ينمو كل كائن حي، و بأن ما يأتيه اللسان من انتهاك لأعرافها ليس وليد الاعتباط، إنما يستثمر تجربة تبحث عن مسالك لغوية أخرى للتعبير عن نفسها و التسلل إلى مشاعر القارئ لتوقظها، فما من خروج عن القاعدة العرفية إلا و ورائها قيمة تعبيرية تحتاج إلى كشف خصوصيتها و "بديهي أن المدلولات سابقة لدوالها في الزمن لذلك كانت الألفاظ وليدة للمعاني في أصل نشأته ا فإذا استقرت في الاستعمال و تواترت أصبحت المعاني وليدة للألفاظ بحكم التقدير و الاعتبار" .(1)

و نتيجة لهذه المرونة يسعى التوليد اللغوي إلى كثرة معاني الحروف، و تنوع مباني الجمل، و تعددها ، و أفضى كل ذلك إلى اتساع مجال الاختيار أمام المبدع اللغوي، و من هنا أيضا دعت الحاجة المنهجية عند "تمام حسان" " إلى تشقيق المعنى إلى ثلاثة معاني فرعية أحدها المعنى الوظيفي و هو وظيفة الجز يء التحليلي في النظام أو في السياق على حد سواء . و الثاني المعنى المعجمي للكلمة و كلاهما متعدد و محتمل خارج السياق و واحد فقط في السياق و الثالث المعنى الاجتماعي أو معنى المقام و هو أشمل من سا بقه و يتصل بهما على طريق المكاملة لأنه يشملهما ليكون بهما و بالمقام معبرا عن معنى السياق في إطار الحياة الاجتماعية و هذا التشقيق هو ما أسهمت به الدراسات اللغوية الحديثة في محاولة الكشف عن المعنى اللغوي" (2).

لأن الألفاظ هي وليدة الثروة اللغوية و المعرفة اللسانية المتطورة تحاول بعملية تصنيفية على ما يصطلح عليه في نمو اللغة " و في سياق هذه الطرائق يرد استعراض الاشتقاق و المجاز و النحت و التعريب، أما محط الإشكال مكمن الاستغراب ففي تقديم هذه القضايا على م ستوى نوعي متجانس ، و كأنها متماثلات، بل كأنم ا هي بدائل في وضع مصطلح تتوازن في نوعيتها وتتفاصل في إجرائها على نهج التوليد الدلالي " (3).

---

(1) عبد السلام المسدي: مباحث تأسيسية في اللسانيات ، ص 64.

(2) المسدي : اللسانيات من خلال النصوص، ص 85-86.

(3) المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات، ص 65.

و الإشكال في هذا المقام كيفية مواجهة العرب لهذا التفوق الحضاري بين التصورات الموروثة و المعرفة اللسانية المتطورة و هذا التلابس هو ما يحمل اللغة عبء المواقف التاريخية في اقتفاء أثر القدامى، و هذه النقطة هي المحور الذي يجب أن تنصب فيه البحوث العربية – حسب الدارس- للاندماج في العلم اللساني و ذلك بتكثيف البحث فيما نستقبله من الألسنة الأخرى لينتج ما يسمى بالتداخل اللغوي الحضاري من الأوجه السليمة " و أبرز خلل منهجي أن نغفل عن تلقائية الظواهر اللغوية. فالخصائص الحركية تنبع من ذات اللغوية لا تفرض عليها من الخارج فرضا، فهي ليست كيانات قاموسية لذاتها، و لكنها ذات وجود دلالي، فلكل منها شحنته الخبرية التي تتحول معه حيثما حل فيقحمها على ما دخل عليه إذ يلتحق به " (1).

فاللغة دائما في محاولة الوصول إلى توازن في حاجة إلى من يعطيها دلالة جديدة لتعود بها إلى الحياة مرة أخرى فالألفاظ فيها ربما تبقى ساكنة لفترة معينة حتى تصادف كاتب أو عالم ليعيدها إلى الحياة بدلالة جديدة و أحيانا تتم هذه العملية بصورة تلقائية و أحيانا بطريقة منظمة قد يكون الهدف التخلص من الكلمات الأجنبية الدخيلة أو سد نقص ما تفترضه العلمية، كما يمكن أن تنقرض بعض الألفاظ و تموت فتنساها اللغة و كل هذا يدل عند "حلمي خليل" على أن:
" المعنى يلعب دورا هاما في بناء كلمة ما و استمرارها أو اختفاء كلمة أخرى و انقراضها، ذلك لأن القيمة الحقيقية للكلمة تكون بمقدار ما لدلالاتها من عموم و شيوع في المجتمع، و من مرونة في الإحاطة بأكبر عدد من الصور الجزئية و التفاصيل المختلفة التي تدخل في نطاق هذه الدلالة بحيث تسعف المتحدث في المناسبات التي يحتاج إليها....تدل على معقول أو متصور".(2)

و بذلك تتضح الغاية من البحث و الأسس التي ينبني عليها مشروعه، و هي إعادة صياغة المفاهيم الدلالية بطريقة تستجيب لمعطيات العصر و مقتضيات البحث العلمي الحديث. و لا بد من إقامة ميزانية اختبارية لتحديد مظاهر المفارقة و عوامل الانفصال الظاهرة و الخفية القائمة بين التصورات السائدة و المعرفة اللسانية المتطورة .

---

(1) عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات، 74-75.

(2) المسدي : اللسانيات من خلال النصوص ، ص 89 .

8/ بين المعرفة الموضوعة و اللغة المحمولة

استند الدارس في تحليل هذه الثنائية إلى المنطق "فالوضع و الحمل ثنا ئي مفهومي يبسط تلقائيا معضلة تحويل مادة العلم إلى موضوع للمعرفة، و بين طرفي الوضع و الح مل تقوم كل عملية تفسيرية يشرح فيها الموضوع بالمحمول على حد ما يشرح المسند في علم التركيب اللغوي المسند إليه إذ يخبر عنه و يتم له الدلالة" .(1)

فالمحمول عند الدارس هو با لضرورة خطاب لغوي. و لكن قد يكون هناك إشكالا إذا كان الموضوع في حده هو خطاب لغوي، فما هي صياغة الحامل على المحمول في هذه الحالة؟ و كما عودنا الباحث باتخاذه أسلوبا تحليليا مقامه رياضي أكثر منه أدبي.

"فإذا كان الموضوع ذاته خطابا لغويا فإن صياغة المحمول عليه تنشئ خطابا حول الخطاب فتشتق لغة من لغة فتكون لغة محمولة على لغة موضوعة... و بأن القراءة صوغ لمقول دون من حيث ينشد به ابتعاثه باللفظ الحالي عبر الخط الرامز:

- فالكتابة بنية مقولة قائلة، و القراءة بنية قائلة عن بنية مقولة.
- الكتابة خطاب مسند إليه، و القراءة هي الخطاب المسند.
- الكتابة نص بالوضع الأول، و القراءة نص بالوضع الطارئ.
- القراءة بنية حاكية، و الكتابة بنية حاكية و محكي عنها.
- فكل كتابة هي لغة موضوعة، و كل قراءة هي لغة محمولة " (1).

و هدف الدارس من إجراء هذا التحليل العلمي للقضية هو الخلاص إلى أن كل مدونة في البحث اللغوي، هي "البنية القائمة" أي اللغة الموضوعة و أما الاستقراءات المستنبطة من هذه المدونة هي "البنية المشتقة" أو الخطاب اللساني الذي نستنتجه . و بهذه الطريقة تتحول اللغة من الوظيفة إلى النظام، فالوظيفة هي تلك الاستقراءات المحمولة التي تتج سد في النظام و هي تلك العلامات التواصلية.

(1) عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات ، ص 40.

و لكن كيف يتم هذا التحول؟ و إلى ماذا يستند العقل في الانتقال من نظام معرفي إلى نظام علامي ؟ و هذا السؤال الأخير يمكن أن نرده إلى الأنساق التي تحتكم في تفكيرنا لنستحضر في ذلك ما قاله كل من "جورج لا يكوف " و " مارك جونس" على أن :" جل التفاصيل التي نسلكها في حياتنا اليومية. نفكر و نتحرك بطريقة أقل أو أكثر آلية، و ذلك تبعا لمسارات سلوكية ليس من السهل القبض عليها، و تشكل اللغة إحدى الطرق الموصلة إلى اكتشافها، ربما أن التواصل مؤسس على نفس النسق التصوري الذي نستعمله في تفكيرنا و في أنشطتنا، فإن اللغة تعد مصدرا مهما للبرهنة على الكيفية التي يشتغل بها هذا النسق " (1)

و تشكل اللغة في هذا الحال طريقة موصلة إلى اكتشافها و بذلك تتحول الكتابة باللغة – تشكل- إلى قراءة في اللغة –تفكير- و يرى "جان بياجي" :

"أن اللغة مؤسسة اجتماعية تحكمها نواميس مفروضة على الأفراد تتناقلها الأجيال بضرب من الحتمية التاريخية، إذ كل ما في اللغة – راهنا- إنما هو منقول عن أشكال سابقة هي الأخرى منحدرة من أنماط أكثر بدائية و هكذا إلى الأصل الأوحد أو الأصول الأولية المتعددة" (2) .

كما يتأسس هذا الخطاب من منظور " سعيد يقطين" أن : " الكاتب أو المؤلف " و هو "يكتب" كلماته أو "يؤلف" بينها "يبني" عوالم نصه وفق كيفية ما : محاكيا بناءات موجودة، أو مبدعا، في نطاق الممكن النوعي، طرائق جديدة في "تنظيم" بنياته النصية التي يتشكل منها النص الذي "يبدع" وفق رؤيته لعمله الإبداعي أو تبعا لضرورات تشكيل المعنى" (3)

---

(1) جورج لايكوف و مارك جونسن : الاستعارات التي نحيا بها ، تر: عبد المجيد جحفة، ط1 ، دار توبقال للنشر، المغرب، 1996، ص 21.

(2) عبد السلام المسدي: مباحث تأسيسية في اللسانيات، ص 43.

(3) عبد الحق بلعابد: عتبات، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008، ص 14.

فهو نظر إلى المسألة بطريقة يبني فيها العوالم المحمولة و الموضوعة بطريقة تدريجية تحكمها بناءات منظمة، و في الأخير يفضي "المسدي" إلى القول بأن : " منطقية العلاقة بين الدال و المدلول تتناسب تناسبا عكسيا مع طاقة النظام العلامي المعني في الإبلاغ، فيكون معيار الاعتباط هو النموذج الأو فى المجدد للجهاز الإبـلاغي، فكلما ثقلت كثافة التعسف الاقتراني في أي نظام إبلاغي نزع جهازه التعبيري إلى طاقته القصوى، فالشحنة الاعتباطية في أي حدث تواصلي هي المولد الدائم لسعة النظام الإبلاغي الذي فيه يندرج ذلك الحدث."(1)

و بهذا تكون اللغة ليست مجرد ظاهرة سهلة الاستعمال كما هو ظاهر لنا، و إنما الإشكال فيها هو العجز عن استيعابها لذا وجب علينا النظر إلى الظواهر في أنطولوجيتها، و ذلك بالاستثمار الإيبيستيمي الأقصى في الدراسة و التحليل و البحث عن المكامن الغامضة لأنها نظام معقد لا ينحل إلا بالبحث الدقيق.

(1) عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات ، ص 49.

9/ العلامة و نظام اللغة

يحاول الباحث أن يلقي الضوء على بعض المفاهيم السائدة عند العرب الخاصة بالنظام اللغوي تركيزا على العلامة التي أصبحت محورا من محاور اهتمام الشعوب نظرا لأهميتها في أداء ما لوظيفة الدلالة و يشير في ذلك أولا إلى "أبي النصر الفلوابي" الذي يتشخص بضرب من التقدير التصوري للعلامة اللغوية و المقام الذي تنشأ عليه باعتبار أن الإنسان "إذا احتاج أن يعرف غيره ما في ضميره، أو مقصوده بضميره، استعمل الإشارة أولا في الدلالة على ما كان يريد ممن يلتمس تفهيمه إذا كان من يلتمس تفهيمه بح يث يبصر إشارته....، ثم استعمل بعد ذلك التصويت، و أول التصويتات النداء، فإنه بهذا ينتبه من يلتمس تفهيمه أنه هو المقصود بالتفهيم لا سواه، و ذلك حينما يقتصر في الدلالة على ما في ضميره للإشارة إلى المحسوسات ....، فالتصويتات التي يجعلونها علامات يدل بها بعضهم بع ضا على ما في ضميره مما كان يشير إليه وإلى محسوسه أولا " (1)

و هذا الارتباط بالنسبة إليه متواصل تحتكم إليه وظيفة العلامة في تأدية الغرض التواصلي، إلا أن إخوان الصفاء يحددون ماهية اللغة القائمة على أساس الغرض و الاستجابة أو سبب من النتيجة حسب متطلبات الحاجة الإنسانية " و أعلم أنه لو أمكن الناس أن يفهم بعضهم من بعض المعاني التي في أفكار نفوسهم من غير عبارة اللسان لما احتاجوا إلى الأقاويل التي هي أصوات مسموعة لأن في استماعها و استفهامها كلفة على النفوس من تعليم اللغات و تقو يم اللسان والإفصاح و البيان ...، و أن الألفاظ إنما هي سمات دالات على المعاني التي في أفكار النفوس وضعت بين الناس ليعبر كل إنسان عما في نفسه من المعاني لغيره من الناس عند الخطاب والسؤال." (2)

و هي نظرتهم في هوية العلامة في بنية اللغة و مظاهرها الأدائية المختلفة، ثم جاء "عبد القادر الجرجاني" في شرح نسبية ارتباط النظم و المعنى و قال : " نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، و ليس نظمها بمقتضى عن معنى، و لا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه " . ثم يقتحم الـ "جرجاني" سياج الافتراض الجدلي فيقول: "فلو أن واضع اللغة كان قد قال ربض مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد."(2)

---

(1) عبد السلام المسدي : مساءلات في الأدب و اللغة ، ص 40.

(2) المرجع نفسه ، ص 41.

و ليس الوعي بالتسلسل بين ألفاظ اللغة و دلالاتها ما يهدف إليه "الجرجاني" و لكن لا تستقر العلامة اللغوية إلا بالعرف الجماعي، و هو ما أفضى إليه "عبد الجبار القاضي" على أن : "كل اسم إنما يصح أن يجعل في اللغة بدله غيره، و هي صياغة بلغت من الاكتناز و التجربة ما أهلها إلى أن تكتسي قالب القوانين، و ليس هذا بغ ريب إذ يأتينا به شيخ من شيوخ العقل، فلقد كان القاضي "عبد الجبار" قاهرا ببصيرته في قضايا الكلام مثلما كان " عبد القاهر الجرجاني" جبلوا بكشوفه و استدلالاته في قضايا اللغة و النظم و التركيب" (1).

أما الخاصية الأساسية في رصيد اللغة هي الترابط الداخلي، و كما قال النحويون:

" العلم ما يجوز تبديله و تغييره و لا يلزم من ذلك تغيير اللغة، و ليس كذلك اسم الجنس، فإنك لو سميت الرجل فرسا أو الفرس جملا كان ذلك تغييرا للغة، و هذا الكلام على غاية من الفصاحة النظرية لأنه يربط العلامة – من حيث هي جزء- بنظام الدلالة اللغوية من حيث هي بناء كلي يقوم على نسيج من العلاقات الثنائية" (1) .

و هذا ما أفصح عنه تحليل "الغزالي" بقوله: أنه لا مجال للعقل في اللغات، فهو في هذه الحالة ينفي مسالك العقل عن الجهاز اللغوي بإلغاء البرهان العقلي غير المنط ق مع المواصفات الكلامية و معنى هذا أن الثنائيات الموضوعة أساسها الوضع و الاصطلاح فلا علاقة في الأصل بين التسمية و المسمى و كما أن انتفاء العلاقة لا يبرر غياب الدلالة لأن المسميات أساسها عرفي فهي دالة في ذاتها و الدليل على ذلك إذا تم حذف أحد الفونيمات اختل المعنى فهي علاقات مترابطة سماها "المسدي" بالوشائج و يمكن فهم ذلك بالتبسيط لنقول أن التسمية عرفها اصطلاحي و الجزء فيها (أو العلامة) فيها جزء تكامل.

و يقول "أبو البركات الأنبا ري" : " ألا ترى أن اللغة لما وضعت وضعا نقليا لا عقليا لم يجز إجراء القياس فيها و اقتصر فيها على ما ورد به النقل، و سيأتي بعد الأنبا ري من يصوغ هذا المبدأ صياغة ينحو فيها منحى العموم فيأخذ بأطراف القضية من منطق مفهوم العلامة اللغوية التي هي اصطلاح و مواضعة فيحصر هوية الكلام في أنه "صناعة مستندة إلى تحكمات وضعية واعتبارات القيمة" و ذاك هو أبو يعقوب السكاكي صاحب مفتاح العلوم". (2).

---

(1) عبد السلام المسدي : مساءلات في الأدب و اللغة، ص 42

(2) المرجع نفسه: ص 43.

يخلص "المسدي" من هؤلاء كيف أن الدلالة اللغوية في م ستوى الألفاظ ليست إلا قيمة نسبية و هذه النسبية بـحسب الحد الاصطلاحي الذي مقامه الصوت لتتحول إلى علامة دالة ع لى معنى و يأتي رأي الشريخ الرئيس "أبي علي بن سينا" مصورا " ذلك أن اللفظ بنفسه لا يدل البتة، ولولا ذلك لكان لكل لفظ حق من المعنى لا يجاوزه، بل إنما يدل بإرادة اللافظ، فكما أن اللافـظ يطلقه دالا على معنى – كالعين على الدينار – فيكون ذلك دلالته. كذلك إذا أخلاه، في إطلاقه، عن الدلالة بقي غير دال" .(1)

و الغرض هو الاستفسار بين حفريات العلامة اللغوية، و يشرح لنا أن دلالة العلامة ليست عند المتلفظ بها، و إنما هي عند المحمول لها، فالعلامة هي الدال على دلالات الآخرين و هذا ما يركبه "الوليد بن رشد" : " أنه من الأمور التي يضطر الإنسان إلى الاعتراف بها أن قول القائل أي تلفظه بالأسماء دليل على ما في نفسه و على ما عند الذي يخاطبه على ما في نفسه أيضا أن كان المتكلم يقول شيئا مفهوما، و لئن كان استقصاء موضوع العلامة اللغوية كما حفل به نسيج التراث الفكري العربي غاية ينشدها الباحث لذاتها عندما يكون همه استكشاف مميزات الحضارة ومدى ما حققه أهلها من ارتقاء بنظام الرمز، و استجلاء لبنية العلامات المتواضع عليها" (2)

و بالتالي كانت س يطرة الفكر العربي على مفهوم العلامة السمة الأساسية التي تسمح الانتقال من دلالة إلى أخرى، و أد ى ذلك إلى إبداع إنشائي على خصوص يات اللغة بألفاظها المتنوعة مما أدى إلى التجاوز بذلك إلى المجاز و الانحراف، و لكن إلى ماذا يفضي القول بمقارنة هؤلاء مع التفكير السيمائي البروسي للعلامة بالدخول في السياق الثلاثي و من منظوره:

" من الخطل القول، فقط، بأن اللغة الجيدة ضرورية للتفكير الجيد، م ا دامت هي جوهر التفكير ذاته، إذ لا توجد علامة في حد ذاتها، و طبيعية، بل يمكن لكل شيء، (و لكل مظهر شيء ما) أن يصبح علامة فالتحول إلى علامة يعني الدخول في سياق ثلاثي للسيميوزيس (Semiosis). و بهذا المعنى فالسيميائية ليست علما للعلامات، بل هي علم للسميوزيس" .(3)

---

(1) عبد السلام المسدي : مساءلات في الأدب و اللغة، ص 43.

(2) المرجع نفسه ، ص 44.

(3) فرانسواز أرمينكو : المقاربة التداولية، تر : سعيد علوش، مركز الإءداء القومي، الرباط، 1986 ، ص 15.

كما أن "بورس " يبني تصوره انطلاقا من " مسلمة يطلق عليها " البروتوكول الرياضي" و وفق هذا البروتوكول يتحدد كل نسق باعتباره كيانا، و لا يمكن أن يكون إلا ثلاثيا، إن هذا البروتوكول يعد أداة منطقية فعالة للقيام بكل عمليات تصنيف الظواهر، و هو ما يعني أن كل شيء و كل فعل و كل عدد يختصر في الرقم ثلاثة" .(1)

و لكما تحددت الظواهر السابقة في بروتوكول ثنائي، تتحدد مع "بورس" على شكل بناء ثلاثي، و إذا كان اختصاره في ثنائية هو إخلال بالنقض، فهل هناك تقصير مع الاعتبار الثنائي أم هناك تفسير آخر للظاهرة؟ و صرخ "قدامة بن جعفر": " و مع ما قدمته فإني لما كنت آخذا في استنباط معنى لم يسبق إليه من يضع لمعانيه و فنونه المستنبطة أسماء تدل عليها احتجت أن أضع لما يظهر من ذلك أسماءا اخترعتها ، قد فعلت ذلك، و الأسماء لا منازع فيها إ ذ كانت علامات، فإن قنع بما وضعته.و إلا فليخترع لها كل من أبى ما وضعته منها ما أحب، فليس ينازع في ذلك" .(2)

و تحل هذه الإشكالية من وجهة "إيكو": " بأن المجهودات الرامية إلى حصر المعنى في علم يساعد التحكم في آليات الدلالة مقصورا على المحاولات التي ابتدأ بها "سوسير" و "بورس"، بل يعتقد بأن كل محاولة ترمي إلى إضفاء طابع منطقي على الوجود يمكن إعدادها بمثابة دافع خفي و شرط إبستيمولوجي لكل تفكير سيميائي، فهو يوافق "تودوروف" في أن مباحث البذور السيميائية قديمة و متجذرة في التراث ....لهذا لا يفر "لإيكو" كثيرا الإدعاءات التي يطلقها البعض على الدراسات الحديثة بوصفها بالعلمية، كي ترمى الدراسات القديمة باللاعلمية و الضبابية والتهافت" .(3)

---

(1) سعيد بنكراد: السيميائيات و التأويل، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2005، ص 42.

(2) عبد السلام المسدي: مساءلات في الأدب و اللغة، ص 45.

(3) وحيد بن بوعزيز: حدود التأويل، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008، ص 43.

و بالجمع بين هذا و ذاك يخلص "المسدي" إلى القول : " فأعظم بها من فصاحة هي كفصاحة السيميائيين تجتمع إلى دقة اللغويين بعد أن تنهل من فيض الفلاسفة المنظرين ! و كيف لنا أن نعثر – مهما نبشنا في حفريات المواريث – على ما يجانس هذا الارتقاء الفكري في إدراك كنه العلامة من حيث هي – على حد ما عرفها به السيميائيون المحدثون – الشيء الذي يقوم بحضوره مقام حضور الغائب". (1) و هو ما يتطابق مع عبارة الأجداد عندما يقولون عن شيء أنه شاهد عن غائب.

(1)عبد السلام المسدي: مساءلات في الأدب و اللغة، ص 37

*/ محمود المسعدي و إيقاع اللغة

تحدث "عبد السلام المسدي" عن هذا الاسم المعروف بكتاباته الإبداعية، و ما كان له من فضل في ابتعاث وعي جديد في آفاق اللغة و الأدب تجاوزا للوعي التراثي و الوعي المستحدث " و أحس الناس بهذ ا الاختراق، فارتضاه بع ضهم و لم يفقهوا سره و انشد أمامه آخرون و لم يتساءلوا، و قوم من غير هؤلاء و من غير أولئك بحثوا و استكشفوا . ثم قنعوا بما أعثرهم عليه البحث فكفوا عن السؤال ."(1)

و تقف هذه المغامرة من البحث على استنباط المنظومة الإيقاعية من اللغة الفني ة، بحيث يفرق بين نوعين من النثر: **الأول** يقوم على وظيفة الإبلاغ لإحداث التواصل مع السامع أو القارئ دون عناية بالنسق، أما **الثاني**، فهو النثر الفني أساسه اختيار الألفاظ بتنسيق أصواتها بإحداث توازن مع المعاني و هذا الكل في جوهره يحدث إيقاعا " فاللغة معمار، و الم عنى فيه فضاؤه المسكون. و مواد البناء أسلوبه الذي حيك عليه، و الإيقاع هو المعدن الحديد الذي به تتمازج أخلاطه فتشتد و تقوى حتى تتسلح و يقوم بها البناء". (2)

كما يعرف لنا "المسعدي" الإيقاع كما أدرجه "عبد الله صولة" على أنه تماسك و هندسة وهيكلة بقوله: " الذي تقره جميع النظريات (...) هو أن الإيقاع يظهر في كافة حالات كصيغة معينة من "النظم" يصوغها صانع الإيقاع بعملية أساسها هيكلة [Structure] و هندسة [architecture] تتألف وفقها عناصره المادية في هيئة متماسكة تتعلق أجزاؤها البعض بالبعض و البعض بالكل و تنتظم حسب نسب و مقادير و مواضع و أمداد و أوصال أو فواصل مضبوطة جميعها ضبطا لا تصيبه زيادة أو نقص أو تغيير إلا اختل و انعدم قوام الإيقاع المقصود صنعه."(3)

لذلك أقر "المسدي" بأن أقوى الإيقاعات هي ما خفي منها و يظهر ذلك من خلال الثنائيات التي استعملها "المسعدي" ليشير إلى نظرية هيكلية بنيوية تنتظم فيها المنظومة الإيقاعية.

---

(1) عبد السلام المسدي: محمود المسعدي و إيقاع اللغة، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر و التوزيع، تونس، 1997، ص 07.

(2) المرجع نفسه، ص 28.

(3)عبد الله صولة: مفهوم الإيقاع عند المسعدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1997، ص 88

" فالذي به نتأول – إيقاع اللغة – عند "محمود المسعدي" هو في حد ذاته صورة مثلى للانصهار القائم بين بواعث الكتابة باللغة و حوافز التفكير فيها، و لعل الأمر أبعد مدى مما يفوه به صاحبه: هو هاجم بفكره عليه في ر حاب الأدب و الفن و جميل الأقوال و لكنه في تصاقب الفكر والعبارة و الإيقاع مبدأ كلي يتخطى الفن إلى الأداء مطلقا. " (1)

و ما أراده "المسدي" هو أبعد المدى للولوج بفكر "المسعدي" إلى الخطاب الإبداعي و هو الأدب، الخطاب الواصف و هو النقد في قوله جميل الأقوال عما ه و مبتعث من الأمثال التي حكى فيها النقاد لما فيها من قوالب فركبوا ما ركبوا من ذلك من كل سياق، و هناك أيضا الخطاب العلمي مثلا: تطرق "المسعدي" إلى مشكلة المعرفة عند "الغزالي" : "و لكن هناك الخطاب النقدي الذي موضوعه الأدب و موضوعه النقد و موضوعه حظ الأدب من اللغة و من الإيقاع .....، و منه أدب اللفظيين الذي فيه يتراكب الكلام و يتداغم، و فيه يغص المتكلم باللفظة تختنق في الحلق و الحرف يتعطل به اللسان،و فيه يشتبه العي بالإيجاز، و يلتبس العجز بالإبداع، و في خضمه ينوب الفراغ عن المعنى، و النية عن القدرة و "أنا " الملكفون عن الكيان الفعال، ليظن أن الغموض عمق والإبهام خصب و الظلام بيان ."(2)

و هنا في هذا الضرب يدمج المحسوسات الإيقاعية في نفس الأديب و هو عبارة عن حفر في الآفاق المعرفية للإبداع، فهو يقف على الصورة في اللفظ كما يقف على المجاز و الاستعارة وكل تشبيه و كناية، ما يعزز في تفسير آليات الكتابة الفنية فكما قلنا سابقا لا يكتفي الحديث فيه عن اللغة و المضمون و يضيف في ذلك "محمد العمري " في قوله:

" أن هذه المباحث الصوتية الدلالية ضرورية اليوم لفهم بنية القصيدة الحديثة المبنية على التفاعل، بل الصراع بين التقطيع النظمي و التمفصل الدلالي...، و الخلاصة، من الزاوية البلاغية، أن الاستعمال العجائبي للبنية الصوتية الإيقاعية يقلب الأوضاع و لا يبقى هناك محل للمقياس التقليدي الذي يطالب بجعل الأصوات تابعة للمعاني الجزئية، لامناسبة هنا للحديث عن التكلف لأنه معلن . لايأتي الصوت هنا ليحاور المعنى بل ليشكك في جدواه، و يكشف عجزه. و لا يبقى الإيقاع في حدود التناغم بل يشغل التنافر أيضا عن قصد."(3)

---

(1) عبد السلام المسدي: محمود المسعدي و إيقاع اللغة ، ص 30.

(2) المرجع نفسه ، ص 31.

(3) محمد العمري: الإيقاع تنظيرا و ممارسة عند المسعدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1997 ص 142.

و هذه اللحظة هي لحظة الاندماج للخروج عبر اللغة إلى الإيقاع و الخيال، و المسألة عنده تتجاوز العقل و الإقناع إلى رؤيا الإيقاع و ذلك أساسه الإرادة و هي ما سماها إرادة الحياة بتكسير الأغلال: "لا بد للقيد أن ينكسر أمام طفرة الحياة" .(1)

و من وجهة "محمد القاضي" فإن " المسعدي" ينفي عن نصوصه أن تكون ضربا من الأدب الواقعي الذي يضيف المنظورات أو ينقل الأحلام، و يدعو القارئ إلى متابعة الكشف بالكشف، للخروج من الوجود الأعمى إلى الوجود الحق الذي هو تجسيد للكيان لأنه إدراك لنور الحقيقة."(2)

فإثبات الذات و تجاوزها قصد إحيائها، هي الالتحاق بالوجود و تحديد الكيان فيها و هذا الإثبات ينكشف على ثلاث مستويات:

"1- الأسلوب أو الصياغة اللفظية للخطاب : و هي عند القدماء ثلاث مستويات : نبيل، متوسط و منحط. و يكمن في اختيار الألفاظ و تركيبها و تراعى فيه الصحة و الوضوح والمناسبة للموضوع و الأناقة المتمثلة في إختيار الألفاظ و الصور و التجنيس و الإيقاع.

2- **الحجاج**: و هذا بدوره يتفرع إلى حجاج مساند و حجاج مفند ...إذ فيه تتاح فرصة إظهار الكفاءات الإبداعية للخطيب.

3- **السرد** : و هو عرض الوقائع، و ينبغي لهذا الجزء أن يكون واضحا و محتملا، و غايته الأساسية هي الإفادة أو عرض محتوى الملف ." (3). و بهذا يجمع الباحث الوحدات الدالة و جدول الانتظام بالحجاج المقنع وقفلعلى آليات التحليل الأسلوبي للوصول إلى مكاشفة التحليل المتكامل و" منطق الفرضية المنهجية أن كتابة "محمود المسعدي" تتناضد فيها بنى ما فوق النظم، أو لنقل هي البنية " فوق – المقطعية"....إلى تحليل المسافات القائمة بين البنى السطحية و البنى العميقة في كل جملة أدائية من جمل "محمود المسعدي" و عندها سنكتشف على وجه الدقة شبكة المنظومات المحددة لآليات التأويل" .(4)

---

(1) محمد العمري: الإيقاع تنظيرا و ممارسة عند المسعدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس ، 1977 ، ص 142.

(2) محمد القاضي: الكتابة عند المسعدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1997، ص 184

(3) فرنسوا مورو البلاغة ، تر :الوالي محمد ، جرير عائشة، ط2 أفريقيا الشرق، المغرب، 2003، ص 11.

(4) عبد السلام المسدي : محمود المسعدي بين الإبداع و الإيقاع ، ص 35.

" وهي لا تعني أن نعطي نصا معنى، بل تعني أن نتنبه إلى أ نه نص جمع، أي متعدد الشبكات، هو بعبارة "بارت" مجرة من الدوال(galaxie de signifiants)لا بنية من المداليل، بإمكاننا أن نقتحمه من مداخل متعددة دون أن نجزم بأن أحدها هو الأساس، فالنص الجمع (le texte pluriel) ليس له بنية سردية أو نحو قصصي أو منطق قصصي، فإن وجدنا هذه الأمور في نص فذلك دليل على أن صفة الجمع لا تنطبق عليه انطباقا تاما " .(1)

و صفة الجمع عند "المسعدي " تكون المدخل الذي نقتحمه من أبواب متعددة للتفكير في آلية بحثية جديدة على تشخيص جانب من الجدل، حول الرواية و الشعر، فالتساؤل حول ما إذا كنا الآن في زمن الرواية أم في زمن الشعر هو عند "المسدي" خطأ جوهري و التباس فكري خطير والحقيقة أن الشعر هو الكلام الموزون و المقفى، المبني على الاستعارة و الأوصاف، لذلك هو إبداع لغوي يتوسل بالخيال.

أما الرواية فهي تعكس المبدأ الشعري، إذ تقوم مقام الخيال الذي يتوسل بالشعر.

و اخذ "المسدي" في ذلك تصنيفا يميل إلى الحساب الذهني، مستوياته تتمثل في أن :

" – إبداعية الشعر هي إبداعية الدوال المخيلة.

- و أن إبداعية الرواية هي إبداعية المدلولات المخيلة.

- في الشعر تتضايف الدوال بتضايف البنى التركيبية.

- و في الرواية تتضايف المدلولات بتضايف أنساق الدلالة.

- الشعر يجيز لك نسيان معناه و لا يغفر لك نسيان لفظه، و الرواية تحاسبك على الصور التي شخصتها لك فأقامتها في ذهنك مقام الوقائع، كما لو أنها عالم حقيقي مكتف بنفسه " (2)

---

(1) محمد القاضي : تحليل النص السردي ، دار الجنوب للنشر، تونس، 1997 ، ص 53.

(2) عبد السلام المسدي: المسعدي و إيقاع اللغة ، ص 37 .

و انطلاقا من هذه التحديدات يتساءل الباحث عن أي ضرب من التحديد يستند أدب "محمود المسعدي"؟ و يجيب "المسدي" ببساطة: " هو بلا جدل و بلا خلاف شيء يتطابق عليه هذا و ذاك، هو خطاب تركب على ايبيستيمية مزدوجة:

- الأنساق و اللغة من خلال حضور اللغة .
- ثم الأنساق و اللغة من خلال غياب اللغة.
- لو جاز لنا أن نرتب ما قدمناه ترتيبا يجعله إطارا مرجعيا لدراسة الكتابة عند "المسعدي".

و ضممناه إلى ما أسلفناه من مشروع تفسير يستخدم جهاز البنى العميقة و البنى السطحية ويستعمل آليات التأويل لأمكننا الجزم بأن الإيقاع هو مفتاح المغالق، و بأنه سر من الأسرار في تجلية المحتجب، فلو اتجه البحث هذه الوجهة و انتحى من المناهج ذ لك المنحى، فسنحصل على ثمار علمية في مجال النقد الأدبي يكون للسانيات فيها بعض الفضل" (1)

"و بهذا المنظور يمكن أن نوفق بين المكتسبات العلمية العالمية ليصير لنا علم للنصوص وبين الأخذ بعين الاعتبار خصوصية الثقافة القومية و تفرد النص و تميزه داخل الثقافة ، و داخل الجنس الأدبي نفسه ." (2)

" و يومها سنقول : هذه هي غراماتولوجيا الكتابة عند "محمود المسعدي" ، و هذه هي مصفوفتها الهرمينوطيقية ، أو سنقول هذه آجرومية الفن الأدبي عند أديبنا ، و هذا علم تأويله" (3)

و في الأخير يخلص " محمد عبد المطلب" إلى أن " أهمية نظرية "المسعدي" في الإيقاع، تتأتى من صلاحيتها للتعامل مع مناطق إبداع ية أخرى ... فإن الإفادة منه سوف تكون بالغة في تناول نصوص أدبية استفاضت في الواقع الأدبي العربي، و نعني بذلك (قصيدة النثر)التي ركز الرافضون لها على خلوها من أهم خصيصة شعرية و هي الإيقاع، فمن خلال نظرية "المسعدي" يمكن دراسة هذا النوع الأدبي لكشف إيقاعيته، إن كان لها وجود، و ربما اقتضى الأمر تعديل بعض أدوات التحليل أو إضافة أدوات جديدة، يفرضها النص ذاته لتكتسب نظرية فرعية متجددة ." (4)

---

(1) عبد السلام المسدي: المسعدي و إيقاع اللغة ، ص 37 .
(2) محمد مفتاح: دينامية النص ، ط3 ، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2006 ، ص 45.
(3) المسدي : المسعدي و إيقاع اللغة، ص 37 -38 .
(4) محمد عبد المطلب : نظرية الإيقاع عند المسعدي ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ، 1997، ص 78

المبحث الثاني :

السند النظري للمقاييس اللغوية عند "المسدي"

I – المصطلح النقدي عند "المسدي"

1–الثوابت المعرفية

2–المستند النظري

3–اللغة بين النقد و الأدب

4–مصطلح "السيمياء" عند "المسدي "

II –المعرفة اللغوية و قضية الدلالة

1–اللغة والتراكب الوظيفي

2–فلسفة اللغة

3–لغة الأدب

III–النقد و التظافر المنهجي:

1–النقد و الأسئلة المستأنفة

2–النقد الأدبي و العلوم الإنسانية

I –المصطلح النقدي عند "المسدي"

1–الثوابت المعرفية:

تستند المصطلحات حسب "المسدي" على ثوابت معرفية، يجب فهم المبدأ للولوج إلى مستنداتها الآلية، التي تكسبها المنظومة التي تنتمي إليها، لأن كل علم يقتفي نوعية خاصة، يتحدد من خلالها على مسالك اللغة المستعملة و لأن "النواميس اللغوية تقتضي تحديد نوعية اللغة التي نتحدث عن قضية المصطلح ضمن دائرتها و ما تختص به من فروق تنعكس على آليات صياغة الألفاظ ضمنها ...، فإن لكل فن من أفنان المعارف خصوصيات لا غرابة أن تأتي على الأعراف اللغوية بكثير من المؤلفات الواسمة تختلف من حقل علمي لآخر"[7] .

[7]-عبد السلام المسدي: المصطلح النقدي ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر و التوزيع، تونس، 1994 ، ص 10 .

و أهم ما يهدف إليه الباحث هو أن جوهر الثمرة المادية على مستوى المصطلح يكمن في البناء القاعدي و المقياس اللغوي ، الذي يحدد المسلك المعرفي النوعي ، الذي يسير عليه الاختصاص، فليس هناك من وسيلة يتواصل بها الناس، إلا و قامت على اصطلاح مثبت يراعي السياق الثقافي الذي يحكمه على العموم، و مع ذلك يبقى للكلمة المكتوبة سلطتها، التي نبحث فيها قبل كل شيء، عن المعنى.

فالسؤال الأول الذي يسأله التلميذ دائما عندما يسلم إليه كتابا صعبا ليقرأه هو : " ماذا يعني هذا الكتاب ؟ " حيث يفترض هذا السؤال أن هناك معنى أو مضمون واضح و موضوعي لابد أن يستخرج من النص، بشرط امتلاك العدة الصحيحة و الذكاء الكافي، للقيام بذ لك و مع ذلك لو توقفت و فكرت مليا بما نعنيه من كلمة معنى تجد أنه ليس واضحا"[8].

فالمصطلح الحرفي هي حقيقة تصمد وراء المعاني لذلك لا يمكننا التكلم بتحاشي الأدوات الاصطلاحية إلا عند مراعاة السياق المحكوم إليه السجل الاصطلاحي، "بحيث يغدو الجهاز المصطلحي لكل ضرب من العلوم صورة مطابقة لبنية قياساته، متى اضطرب نسقها اختل نظامها و فسد باختلالها تركيبه فتتاهفت بفعل ذلك أنسج ته...، تمامًا كحديثك عن علاقة ذرة الأكسجين بهباءة الهيدروجين في تركيبة الماء، أو تفكيكهما في المختبر تحت الضغط الكهربائي بمنطق الاستكشاف أو بهدف التجربة و كذا الشأن بين مضمون أي علم من العلوم و منظومته الاصطلاحية"[9].

لذلك كان هدف الباحث هو تصنيف أثر المعرفة ، ليتم تصورها – الآثار المعرفية– من خلال أدواتها الدالة الكاشفة ، لتكون بذلك جمع الأجزاء ضمن الكل ، شأنه في ذلك مناقض ة القفز على الأجزاء و الانقطاع عن كيان المجموع ، فهذه البديهيات هي الأساس الذي أصر عليه و هي الركائز التي يتغاضى عنها الكثير من ا بالانطلاق من مصطلحات و مركبات تتوسل بشرح المفهوم و تفكيك ه، على أساس المقاربة من المعاني، و لكن هذا الاقتفاء بالنسبة إليه هو ظلال المعنى لا مقاربته، فاللغة عنده لا تحتمل الازدواجية الوظيفية التي لا تطيقها بطبعها،

"و مهما كانت وسيلة الانتقال من تواز إلى آخر، فإن هناك علاقة وثيقة بين التوازيات و بين المقاطع، هي علاقة الخاص بالعام و المعقد بالبسيط، و علاقة تكثيف أحيانا أخرى ،

---

[8]-دايفيد جاسبر: مقدمة في الهرمينوطيقا، تر: وجيه قانصو، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون 2007، ص 25 – 26 .

[9]-عبد السلام المسدي: المصطلح النقدي، ص 11-12

و هذه الانتقالات ليست عبثا و لكنها تعبير عن التجربة و تنمية لها بكيفيات مختلفة، و إلقاء الضوء عليها من زوايا متعددة " [10].

و هي تلك الخطابات الانتقالية بوحدات لغوية تعبيرية سماها "محمد مفتاح "، "التجسيرية" و "التعبيرية" في أبعاد "التشابه و الاختلاف"، ذلك أن لكل علم يبحث لمساره نشاطاته الانتقالية و التعبيرية و لو "تتبعنا منظومة المصطلحات في كل فن من فنون المعرفة و قارناها بالرصيد القاموسي المشترك في اللغة لوجدنا مجموعة كبيرة يتداولها الناس بمعانيها الشائعة و يتداولها المختصون بمفاهيم محددة، فتنفصل هذه عن تلك في الدلالة انفصالا، لا يبقى معه إلا التواتر، في الشكل الأدائي، و هذه الحقيقة تصدق على كل معرفة ، صدقها على الأدب والنقد، و من رام على ذلك دليلا فليبدأ بلفظتي الأدب و النقد ذاتهما، ليرى الفروق الدلالية بين ورودها على اللسان المشترك، و ورودهما في سياق كسياق حديثنا المختص هذا، ثم قس على ذلك ألفاظا: كالجمال و التعبير و الأثر و التلقي و الطبع و الصنعة" [11].

فالباحث يحدث توازن بين القاموس اللغوي العام و الرصيد الاصطلاحي، عن طريق التكافؤ ، يأخذ فيه كل طرف الوظائف النوعية ، للتوفيق بين كل مصطلح في الاستعمال المناسب لمقامه بتعاضد المعرفة اللسانية و الخبرة الأسلوبية.

و هذا واقع على أساس الانسجام، و التركيب في المقاطع تتبعا لمخارج الحروف و بنية الحركات، ليحدث نوع من التطابق بين الأجزاء المندمجة في الكل باتحادها مع خصائص الإيحاء الدلالي "فالمصطلح يبتكر فيوضع و يبث، ثم يقذف به في حلبة الاستعمال فإما أن يروج فيبث و إما أن يكسد فيختفي و قد يدلي بمصطلحين أو أكثر لمتصور واحد، فتتوارد المصطلحات الموضوعة و تتنافس في سوق الرواج، ثم يحكم التداول للأقوى فيستبقيه و يتوارى الأضعف" [12] .

و هذا ما هو معروف حتى في الحياة العامية فنحن دائما نختار لأنفسنا من خلال حديثنا مع شخصيات في الحياة ، ما هو مناسب من الاستعمال، في المقام المناسب لنحدث نوع من التمازج بين الألفاظ المعتبرة في كليتها مع إيحاءات دلالية أقوى وإلغاء ما هو أضعف لتحقيق الانسجام بالتوفيق بين المصطلحات .

2-المستند النظري:

---

[10]-محمد مفتاح: التشابه و الاختلاف، ط 1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1996، ص 101 .

[11]-عبد السلام المسدي: المصطلح النقدي، ص 14 .

[12]-المرجع نفسه، ص 15

إن تحديد أهم الثوابت المعرفية عند الباحث لقضية المصطلح، يستدعي الحاجة إلى الكشف عن طبيعة القاعدة النظرية المنطلق منها في تحديد الآليات التي تتولد على أساسها المصطلحات : "و هي اللسان العربي في مقامنا مم ا يؤثر بشكل حاسم في آليات توليد المصطلحات ضمنها و لا سيما عندما تظهر الحاجة إلى وضع ألفاظ عربية انطلاقا من مصطلحات أجنبية هي في معظمها تأتينا اليوم مسبوكة في لغات منحدرة جميعا من فصيلة غير الفصيلة التي ينتمي إليها اللسان العربي "[13] لأن جماع اللغات الأجنبية منها الإنجليزية و الفرنسية و الإيطالية و الإ سبانية و الألمانية، يعود أصلها إلى تاريخ اللغات الهند أوروبية و هي بمثابة المورد لظهور المصطلحات الحديثة في المعرفة الإنسانية و الأساس في تكاثر الألفاظ عندها هو المزج العنصر ي في التركيب اللفظي بانصهار العناصر الداخلية فيه "بحيث تتوافر القدر ة التوليدية عبر الطاقة الالتصاقية بين الأجزاء" و بينما يعود الأصل في اللغة العربية في انتمائها إلى اللغات السامية "تختص بطبيعة توالدية غير الطبيعي التركيبية، و إنما لها قانون تك اثري يعتمد الحركة الانفجارية داخل بنية الكلمات، و يتم لها ذلك بفضل آلية الاشتقاق : هذا التقولب الصرفي المظهري في نطاق المادة اللغوية الواحدة،

و الذي لولاه لتعذر على العربية أن تستوعب أي مادة اصطلاحية طارئة في تاريخ المعرفة البشرية"[14] .

فإذا كانت اللغات الأجنبية تعتمد صفة المز ج و التشكل الالتصاقي بين ما يسمى (Racine) و هي الجذر اللفظي مع اللواحق ، أساسها التركيب الخارجي في التكاثر هي صفات مميزة للغات الهند أوروبية، بينما تقوم اللغة العربية أو اللسان العربي "على حركة داخلية تمكنها من معاودة الانتظام الذاتي و استئناف الإرتصاف البنائي عند كل حاجة دلالية أو اقتضاء اصطلاحي"[8] ، فهي تعتمد في تولدها الذاتي و تكاثرها القاموسي على الحركة الانفجارية.

3-اللغة بين النقد و الأدب:

في هذا المجال يعالج "المسدي" قضايا في مباحث الأدب، و هي تلك الخصوصيات و المميزات النوعية المتمثلة في النقد الأدبي، و هذه المعالجة تقوم على نظرة نقدية معاصرة، و إذا تطرق إلى وجهة تقليدية معينة، فذلك ليس من باب التسليم و إنما فقط على أساس تاريخي

---

[13]-عبد السلام المسدي: المصطلح النقدي، ص 15

[14]-المرجع نفسه، ص 17 .

في تاريخيته، و نجد في ذلك تعميق للمسألة عند "عبد الملك مرتاض" بقوله : " إذا كان علينا أن نعمل باستمرار في سبيل تعميق الراية النقدية أو تطوير القراءة التأويلية و توسعتها إلى أقصى الحدود الممكنة، و الاستظهار بالكفاءة الذاتية لتفجير الكامن، و توهيج الشاحب، و توضيح الغامض و حصر الشارد و التح كم في المعتاص، فإنما ذلك يعني، تسليمنا بإفلاس المناهج التقليدية العتيقة التي لا ينبغي مدارستها إلا على أساس تاريخي خالص"[15].

لذلك يعتبر "المسدي" أن المفاهيم العربية لنسق اللغة بما فيها المدح و المقا مة و الموشح و الوقوف على الأطلال هي ما يقابل الدر اما و التراجيدي عند الأمم الأخرى، و عن كل ذلك يتم الكشف عن المظاهر الخاصة للقاموس اللفظي الذي به يتم الأداء، و على هذا الأساس تترتب الخصوصيات المشتركة بين الشعوب ، فالأدب "في أمة من الأمم هو بمثابة مجمع خصوصياتها الثقافية، فيه تتقاطع مسال ك الأفراد و الجماعات و على مرآته تنعكس صور التراكم الفكري و الإبداع الفني"[16] .

و هذه الصور التراكمية الفكرية للإبداع هي التي يصب فيها النقد اهتماماته بالنظر في طبيعة الخطاب و خصائصه فمجيئنا إلى النقد حسب "المسدي" هو ذلك "التحول الكيفي من مجال الخلق الفن ي إلى مجال إحكامه بأدوات ذهنية، هدفنا بها السيطرة على الظاهرة بواسطة العقل، فالنقد معرفة، و هو معرفة من طبيعة خاصة: إذا نظرت إليه من زاوية الفن قلت إنه علم الفن القولي و إذا نظرت إليه من زاوية اللغة قلت إنه علم القول الفني، و لا يغني ذلك شيئا من أنه علم للأدب لا ينازعه أحد في أن يكون له من اللغة جهازه الاصطلاحي"[17] و من ذلك فنحن عند حديثنا باللغة عن اللغة انطلاقا من خطاب إلى خطاب بالأداة اللغوية ، هو جوهر النقد الأدبي و كذلك يستعمل "هوسيرل " وضع اللغة بحسب نظام الوعي حيث التساوق بين الأفعال المنتجة للمعنى و العلاما ت و الأحاديث ...على مجرى الوعي أي ب حسب السبق الذي تتمتع به المقاصد التي في الأغراض ...يميز الحديث بمقوماته من الألفاظ"[18] .

فكل مصطلح هو علامة و العلامة كما ندري هي بمثابة ال رمز و هي تعوض ما هو غائب من المعنى و هكذا يكون العامل اللغوي يؤدي ثمرة العقل المتمثلة في المادة اللغوية ، و بذلك يكون النقد هو ما نواجهه سعيا منه في الابتكار، فالقراءة ليست هواية و إنما دراسة "فالاستهواء لا يكفي، فقد يهوى أحدنا موضوعا فيقبل عليه، بحب شديد، يعالجه:

---

[15]-عبد الملك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2001، ص 20 .
[16]-عبد السلام المسدي: المصطلح النقدي، ص 18.
[17]-عبد السلام المسدي: المصطلح النقدي، ص 19 .
[18]-فتحي أنقزو: هوسرل و معاصروه، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2006، ص 61 .

و لكنه قد لا يبلغ منه ما كان يريد ...، و إذا فهواياتنا ...ليست شفيعة لنا، ما لم نجدد في سعينا، و نبتكر في قراءتنا"[19]، "و بما أن اللغة التي تمثل مادة الفحص تتطابق حينئذ مع اللغة التي تمثل وسيلة التعبير عن ثمرة هذا الفحص"[20] .

و كلما زاد البحث في اللغة ال مدروسة تباينت أكثر، و يزداد بذلك البحث النقدي يسرا باللغة الدارسة و ينتج عن ذلك دوران معرفي أساسه الاستثمار.

"و في اعتبارات عدة أن ما يقوم به "بارث" هو استنطاق ما هو واضح، ويدرس بنظرة فاحصة، الأشياء التي رفتوضها و نجعل من الواضح منها ما هو ضمني"[21] .

فاللغة هي لغز الكتابة ، بالعلامات، للمعاني التي تحيط بنا "و وجهة النظر هاته تعدل في الوقت نفسه الفلسفة ذاتها بتوسيع مجالها و تحول طريقة تصور الحياة اليومية، طريقة غير مبتذلة لرؤية المبتذل، تسته دف هذه المحاولة كما كررت ذلك مرارا، توليد الخارق من العادي، فهي تفتح باب الفلسفة على الممارسة العملية و على الجسم و على الألعاب و المزالق، و على العالم الذي يح اول اكتشاف أعماقه"[22] و هذه الممارسات العملية هي عبارة عن استكشافات للأدب و النقد، إنطلاقا من الضوابط المنطقية العقلية، بغية الوعي بخبايا النص و كيف يتحول إلى إبداع و استثمار جديد "تفقي لغته لغة النص الذي كان موضوع النظر و التمحيص لدى الناقد، فتتماهى اللغتان : لغة النص الموضوع و لغة النص المحمول ، عن طريق محاكاة النص الناقد، للنص المرقود"[23] .

و إنطلاقا من هذا البناء، يحدد "المسدي" كيف تكتسب لغة النقد آليات خاصة بمنظومتها الإصطلاحية، شأنها في ذلك تحقيق التوازن بين النص الناقد و النص المنقود، "و إن من شروط الجهاز المصطلحي في مجال النقد الأدبي، أن يستبقي اللفظ كل طاقته

الإيحائية، لأن التماهي المنشود بين المتصور الذهني و الكلمة المصطلح بها عليه هو ليس من ضروب التطابق المعجمي، بقدر ما هو من التماثل الوظيفي، و لذلك كان للتخييل فيه نصيب وافر"[(1)] .

و من الأركيولوجيا المعرفية التي تعمل على إفراد الخطابات كما أشار إليها الباحث "السيد ولد أباه" :"إفراد الخطابات و ضبط حدودها و التمييز بين الم لفوظات و

---

[19]-عبد المالك مرتاض: سبع معلقات، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998 ، ص 9.

[20]-عبد السلام المسدي: المصلح النقدي، ص 20.

[21] - Roland Barthes : Mythologies, P 140.

[22]-محمد سبيلا/ حوارات في الفكر المعاصر، ط1، دار ما بعد الحداثة، فاس 2006، ص 200.

[23]-عبد السلام المسدي: المصطلح النقدي، ص 21.

إجلاء أنماط انتسابها و اقترانها و انفصالها، و هو النهج الذي يكتمل بتحقيب واسع للفضاء المعرفي... من خلال تحليل الإيبستيميات (الأنظمة المعرفية) المتعاقبة التي عرفها هذا الفضاء"[24] .

لذلك كان علينا أن نفرق بين الدلالة الذاتية للكلمات و دلالاتها الإيحائية التي تعتمد طاقة التولد بين الاستقرار و الحركة و بين الصريح و المجاز و آخر ما يلمح إليه "المسدي" في هذا المجال هو أن "النقد الأدبي وإن كان دوما مترافقا مع المعارف الأخرى ...فإنه في العصر الحديث قد أصبح متوا شجا في الأعماق مع حقول معرفية هي على غاية من الدقة، بل و لبعضها تجليات تلامس ما لبعض العلوم الصحيحة من تشكيل صوري في الضبط و الصياغة، و غير خافية اليوم علاقة الأدب و النقد بعلم النفس و علم الاجتماع و بعلم الإحصاء و علم العلامات فضلا عن ارتباطه الوثيق بعلمي اللغة و الأسلوب"[25].

4-مصطلح "السيمياء" عند "المسدي" :

سلك "المسدي" في هذا المعيار من البحث اتجاها خاصا، تميز فيه نوعا ما، بنظرته إلى المصطلح السيميائي و أول خاصية في ذلك هو تسمية المصطلح السيميائي بـــ " آلية المماثلة" " و هي آلية تطوف بكل مراحل التجريد الإصطلاحي ثم تسلك سبيلا مخصوصة لاستنباط قالب اشتقاقي فريد ، هو تركيب من صياغة النقل و صياغة التجريد في آن معا "[26] بحيث أرجع الباحث جذور المصطلح إلى اليونان منه "ساما" بمعنى العلامة و "سامايون" بمعنى الإشارة : بحيث وضع هذا المصطلح في 1752 في مجال الطب في تحديد الأعراض استجابة إلى طبيعة المرض فهو يعني "علم استقراء العلامات الدالة على العلل التي تعتور جسم الإنسان" [1]

و هذه الدلالة هي من صنف الدلالات التي صاغ عليها "سوسير" نظريته ، ليعبر عن هذا المصطلح بأنه العلم الأ شمل، باحتوائه علم اللسانيات و هو البحث في الأنظمة الدالة، "و من طريف ما يحدث أن لفظ السيميائية، استعمل على هيئته الحرفية و كأنه يدل

---

[24]-السيد ولد آباه : التاريخ و الحقيقة لدى ميشيل فوكو، ط2، الدار العربية للعلوم، لبنان، 2004، ص 15 .
[25]-عبد السلام المسدي : المصطلح النقدي، ص 22
[26]-المسدي: المصطلح النقدي، ص 97

منذ نشأته الأولى على ضرب من ضروب المعرفة، فتركيبته القائمة على مقطع ختامي فيه الياء مشفوعة بالألف الممدودة تنسى أنه مصدر مشتق من الثلاثي المجرد، و مصادر الفعل الثلاثي غير قياسية كما نعلم ، و إنما هي صيغ سماعية مطلقة، فيغدو لفظ السيمياء على مستوى اللاوعي اللغوي –بنيته و إيقاعه– كأنه جنيس الكيمياء و الفيزياء و كلاهما إذا انحل مفهومه ، برز فيه لفظ العلم : علم المادة و علم الطبيعة، فعبارة السيمياء في التداول كثيرا ما يتعامل معها النقد كما لو أنها ليست هي بذاتها تعني العلامة بل كما لو أنها تركبت من مفهومين جزئيين هما علم و علامة، و هكذا تصطبغ بنية الكلمة بصبغة المصطلحات ذات التركيبة المعرفية "[27].

يعكف "المسدي" على استقراء ما جال عليه هذا المصطلح، كما عودنا بطريقة علمية يحكمها الطابع المنطقي و تدور أبحاثه في هذا المجال بمحاولته استكشاف ظاهر المصطلح و خلفيته بإكسابه صبغتين أساسيتين: أما الصبغة الأولى فهي الرمز المثير من حيث هو علامة دالة، تتكون أجزاؤه من فونيمات تتصل في حدها تحكمها علاقات و قرائن لا يمكن فصل إحداها عن الأخرى، أما الصبغة الثانية فهي تتجاوز إطار اللغة الرمزية، إلى الحركة الإيحائية، ليحدث تمازج بين الصبغتين نصطلح عليه بالسمياء "و أول ما يتلاحم به هذا الثنائي المنهجي هو لفظ الدراسة كأن يكتب "عبد الملك مرتاض" (ألف ليلة و ليلة: دراسة سيميائية تفكيكية لحكاية حمار بغداد) و يكتب عن (بنية القصيدة عن حميد سعيد : دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة يا ج ارة الدم و الدمار) و كأن يكتب "المصطفى شادلي" (دراسة سيميائية لقصيدة شعرية عربية معاصرة) و قد يتلاحم هذا الثنائي الاصطلاحي انطلاقا من لفظ التحليل.

و هكذا تتضح معالم هذا الأنموذج العجيب من نماذج صو غ المصطلح في اللغة العربية، و لعل طرافته تبلغ حدها الأقصى عندما تنعطف على مبدأ التماثل ظاهرة التناظر، فمفهوم العلامية قد سبق لبعضهم أن أداه بمصطلحات مشتقة من مادة (دل– دلالة) "[28] و لكن هناك خلل في العبارات التي كان يستعملها العرب و هي البديل لعلم السيمياء و من هذه العبارات علم الدلالة و الأدلة و من غير ذلك من المقابلات ، إلا أنها لم تكن في مواطن الاستعمال من محل استعمالها لأنها كرست اهتماماتها لعلوم المعنى، إلا أن المعنى في المقابلات الأجنبية، كانت له مشتقات معينة أو مخصصة من العام إلى

[27]-عبد السلام المسدي: المصطلح النقدي، ص 105
[28]-عبد السلام المسدي: المصطلح النقدي ، ص 110-112 .

الخاص، مثلا : في المقابل الفرنسي كان يستعمل مصطلح (سايمانتيك) كان يقصد به البحث عن معاني الكلمات ، لذلك كان لمصطلح السيميائيات هوية خاصة لا يمكن تعويضها بالبدائل و يقول "المسدي" في هذا الضرب :"من أهم الآليات التي تفرزها اللغة لسد حاجات مستعمليها عندما يواجهون المفاهيم المستحدثة آلية التوليد التي يصنفها علماء اللسان إلى توليد لفظي و توليد معنوي، و في كلتا الحالتين تنبثق دلالة تشق طريقها بين الحقول ، المترسخة في صفوفة الخانات المخزونة لدى أهل تلك اللغة ، حتى تجد مستقرها بين زوايا المنظومة القاموسية"[29].

II –المعرفة اللغوية و قضية الدلالة

يركز "المسدي" في هذا المجال على المعنى و أهمية الخطو على الطرق والمسالك المؤدية إليه و لاستقباله في الوقت نفسه " و على السبل التي ينتهجها في إدراك عناصر المعنى، ثم على الأدوات التي يتوسل بها في تأويل مقاصد المعنى، وتتركز أخيرا على المسالك التي يتوخاها ، لتقديم ثمرة استفادته من المعنى. و لكل تلك المظاهر أهمية بالغة في انتظام حياة الإنسان بل و في استواء بنية المجتمع كافة"[30] .

ثم يبين كيف تؤثر هذه المسالك في بنية المجتمع "فاللسان ليس نتاج قرار فردي أو حتى قرار جماعي، كما هو الشأن مع مؤسسات المجتمع الأخرى، إنه وليد سيرورة اجتماعية يصعب تحديد بدايتها، كما لا يمكن تصور نهايتها"[31].

و يقصد "سعيد بنكراد" من ذلك أن المجتمع له حضارته و أفكاره الغير محدودة في قرار فردي أو جماعي، لذلك كانت السيميائيات بالنسبة إليه ليست علما للعلامات و لكنها دراسة للمفصلات الممكنة للمعنى، و عند "المسدي" أيضا ليس هناك باب للمعرفة "إلا و هي مستقاة عبر مصفاة اللغة، و ليس من نظرية فلسفية تتخذ الإنسان محورا لها، إلا و هي عاكفة في يوم من أيام حركتها على طبيعة العقل المدبر عنده من خلال تعاظل آليات التفكير مع أدوات الإفصاح"[32] .

لذلك لا تتحقق النظرية بمفهوم الهيمنة، و إنما تستقيم منظومتها بقرائن تربط الأشياء استنادا إلى العقل، "فلنستعمل عقولنا دائما و لنعرض عن قوم يردون إيهامنا بأن عقولنا أعداد واجباتنا و ديننا، خصوصا من الناحية الأدبية التي اقتنع العالم العربي

---

[29]-عبد السلام المسدي: المصطلح النقدي، ص 113.
[30]-عبد السلام المسدي: العربية و الإعراب، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003، ص 11 .
[31]-سعيد بنكراد: السيميائيات مفاهيمها و تطبيقاتها، سلسلة شرفان 11، منشورات الزمن، المغرب، 2003، ص 46 .
[32]-المسدي: العربية و الأعراب، ص 9.

بحاجته لتجديدها و ترميم واجهتها الكبيرة "[33] و من ذلك أصبحت اللسانيات ملزومة باستثمار المسالك العقلية في إنتاج الدلالة و تداولها "من ثمار الفلسفة العامة و من ثمار علوم النفس الدائرة على قضية الإدراك، ثم مزجت كل ذلك بما ع اينته من فتوحات معرفية باهرة حققتها علوم الحاسوب ، فانبثق مشروع فكري طموح تحمل ريادته اللسانيات التي تسمى بالعرفانية أو بالإدراكية"[34] و لتتبع هذه المسالك الإدراكية في المشروع اللساني إلى مراتب الاستثمار التأسيسي الكاشف عند الدارس، نتتبع الخطوات التالية:

1-اللغة و التراكب الوظيفي:

لقد كان المسدي يبحث في حقائق اللغة بواسطة اللغة ، عن قضايا تركيبية وظيفية لغوية و ذلك في مجرى المقارنة النقدية في وصف طريقة دوران الكلام على نفسه ، ليصنف الإبداعات اللغوية و غير لغوية ثم يحللها و ينقدها توسلا باللغة الأدق كما يبحث بضبط المقاربة محمد مفتاح ب قوله:"إن اللغة الطبيع ية تجسيمية تشبيهية، و بهذا فإن القدامى و المحدثين، أثبتوا محدوديتها و بحثوا جادين عن بدائل لها تكون أدق و أضبط"[35] ، ليبين أن الصياغة اللغوية تنبني بوضوح عن قياس دقيق لاستحضار ما هو غائب على نسق تركيبي، فاللغة في قضايا الأدب غير عاد ية و هو ما يجعل منها مادة في النص الإبداعي و الخطاب النقدي.

"و مع التطور التاريخي، روعي ت في تدوين الحديث و الشعر و اللغة اعتبارات محددة، هدفها الرئيسي ضبط النص الجدير بالتقدي ر، و إهمال غيره من النصوص ، التي لا ترقى إلى المكانة الخاصة بالنص "[36]، بحيث يتفق يقطين مع المسدي في التنبيه على ضرورة الوقوف بالبحث في "نظام اللغة عندما يتوسل بها الإنسان في الخطاب التواصلي و ليس بالبحث في بنى الكلام عندما يتحول إلى لغة إبداعية في مجال الأدب... فالحديث باللغة عن أي إبداع لفظي –سواء أقيل شعرا أم سيق مساق الكلام المرسل– يجعلنا حيال نمطين من أنماط تركيب اللغة، لأن خصائص الخطاب النقدي لا تتماهى بالضرورة مع خصائص الخطاب الأدبي، و إن اشتركا في بنية معجم ية ونحوية واحدة"[37]، فمن خلال حديثنا باللغة عن نظام من أنظمتها، نحن في مستوى من مستويات الكلام ، في إطار المنظومة التواصلية "و إذا مال التواصل الخطبي نحو التواصل الشعري، فإن الصورة

---

[33]-عبد السلام المسدي: الشابي، ط1، دار المغرب العربي ، تونس ، 1994، ص 54.
[34]-عبد السلام المسدي: العربية و الإعراب، ص12.
[35]-محمد مفتاح، التلقي و التأويل، ط2، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2001، ص 117 .
[36]-سعيد يقطين: الكلام و الخبر، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1997، ص 77 .
[37]-المسدي: العربية و الإعراب، ص 16-17.

البلاغية تتحول إلى صورة شعرية، و هذا يتضمن تغييرا في الوظائف "[38] و بذلك يكون الخطاب التواصلي مستويات تتحول من صورة إلى صورة حسب ما تفرضه الوظائف ، لذلك وجب علينا أن نفرق بين "الكلمة والفكرة و المفهوم المجرد و المفهوم و المصطلح، و تنوع استعمالات المفاهيم في الفلسفة العامة، و في الإبستيمولوجيا العامة و الخاصة ...و القارئ لهذه الأدبيات يجدها اعتنت بشروط امتلاك المفهوم و بكيفية تحديده و بشكله و بأصنافه و وظائفه"[39] .

كما أن البحث الإبستيمي عند المسدي أيضا مداره الاستثمار في التركيب الوظيفي الذي تصنعه اللغة المستخدمة عند الإنسان، سواء أكان يتحدث بها أو عنها.

2-فلسفة اللغة:

لقد قامت اللسانيات على أساس المعرفة اللغوية و يشير المسدي إلى أنها وليدة فقه اللغة، على وجه التحديد و بالتالي فهي تستمد وجودها من القواعد الم نهجية التي تصل العلم بلغة الإنسان و ما يهمنا في هذا المجال هو أن المسدي ليس مع الاعتبارات السائدة للسانيات، على أنها بديل شامل للمعرفة اللغوية السائدة و ما يريد الخلاص إليه هو أن "اللسانيات و إن قامت على أنقاض فقه اللغة، فإنها لا تنفي وجود علوم اللغة، كما وصلتنا و لا تنقض المعرفة النحوية ، لأن مشروعها قد خالف مشاريع ع لوم أخرى تولدت في تاريخ الفكر الإنساني ، على أنقاض معارف شاخت و ا هترأ معمارها حتى بليت فتعين تجددها، و جاء اللاحق منها نافيا للسابق، و هذا التطور القائم على الإلغاء قد عرفته نظريات الفلسفة كما عرفه تاريخ الفيزياء و الكيمياء و الرياضيات "[40] و حجته في ذلك أن اللسانيات لا يمكن أن تكون مكررا ناسخا للمعارف اللغوية السائدة، بما فيها النحوية فهي " لا تلغي علة وجود المعرفة النحوية التي هي معرفة تؤسس علما باللغة يستنبط المعيار و يجعل الاستعمال محكما إليه... فكل من عن له أن يعيد طرح السؤال الإيبستيمي حول مشروعية المعرفة اللسانية، تعذر عليه أن يعيد تأسيس بناء العلم خارج حدود الدائرة الأوسع و هي دائرة علوم اللغة :الفلسفية و النحوية و الفيلولوجية"[41] .

و هذا من باب المنطق لأن اللسانيات جاءت امتدادا للمعارف اللغوية السائدة –فقه اللغة– و إمكانياتها كامنة في التغي ير و طرح القضايا و البرهنة عليها ، لا أن تلغي المسائل اللغوية السابقة، و بذلك انبعث وعي جديد بأن تنجز اللسانيات قطيعة معرفية

---

[38]-محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخيل و التداول، أفريقيا الشرق، المغرب، 2005،ص78 .

[39]-محمد مفتاح: المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1999 ، ص 5.

[40]-عبد السلام المسدي: العربية و الإعراب، ص 20.

[41]-المسدي: العربية و الإعراب ، ص21.

مع فقه اللغة على مستوى المنهج، لتذهب بعيدا عن ذلك بفضل مرونتها و حركيتها إلى إقامة إبسيمتية مع الفلسفة على أساس المنهج العلمي "فاللغة موجودة و تشهد على وضعية تاريخية قذف بها فيها، تحيط بنا و تتجاوزنا، هي بالنسبة للجميع الحاضر المباشر، و إن كانت تاريخيا جد متقنة و بعيدة عن كل بداية"[42] لذلك كانت اللغة السائدة تشهد وضعية تاريخية ، و لكن ما يهمنا هي اللغة الموجودة في الحاضر و تحيط بنا لنباشرها بالدراسة و هذا ما يهدف إليه المسدي.

3-لغة الأدب:

استثمر المسدي في هذا المجال مجموعة من المعطيات اللسانية و البنيوية التي يعمد إليها كل من ناقد الأدب و عالم اللغة بغية دراسة مختلف أبنية الخطاب "و في هذا المجال تحاول النظريات النقدية استلهام خصائص الظاهرة اللغوية في موضوعها و مادتها و تحولاتها حسب مراتب الكلام"[43].

و بالتالي نتج نوع من التفاعل اللساني و النقدي في أرضية خصبة تولدت منها :

أولا: مراتب الاستعمال و هي التي تعبر من خلالها اللغة عن أغراضها في الحياة.

ثانيا: مراتب الإبداع سماها المسدي "التكريس الفني"، "و هو الذي تتمحض فيه اللغة إلى الطاقة الشعرية الإنشائية، دونما رقيب على مدى تطابق المقول مع مضمونه في الواقع الخارجي، الذي هو عالم الأشياء و الأحداث و الوقائع"[1] .

و لكن هذا التصنيف تجاوزته في الحقيقة الرؤية اللسانية و أقامت عليه التصنيف التوليدي، إلا أن المسدي أشار إلى تحرر اللسانيات من تلك الثنائية:

"التي كانت تتعسف تصنيف الكلام إلى ما هو أدب و ما هو غير الأدب، و كل واحد من الصنفين يتحدد سلبيا بأنه نقيض الآخر"[44] .

و بذلك راح النقد الحديث يستثمر الطابع التوليدي لمكتسبات اللسانيات من الدلالة الكامنة في رمز الألفاظ و تجاوزها إلى ال متصورات الخارجة عن حدودها ، باعتبار العلاقات القائمة بين الألفاظ و سياقاتها اللغوية " إذ ينتقي القارئ العناصر الدالة التي تؤدي المعنى المطلوب أكثر من غيرها و يحملنا الانتقاء إلى إدراك النص و من ثم إدخاله و وضعه في سياقه الذي يلائمه"[45] .

---

[42]-موريس بلانشو: أسئلة الكتابة، تر: نعيمة بنعبد العالي و عبد السلام بنعبد العالي، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب، 2004، ص 39.

[43]-المسدي: النقد و الحداثة، ص 40 .

[44]عبد السلام المسدي: النقد و الحداثة ، ص 41.

[45] -مليكة، دحامنية: هرمينيوطيقا النص الأدبي في الفكر الغربي، المعاصر، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سلسلة الدراسة (10)، 2008 ، ص 121.

لذلك تكون هذه العلاقات و العناصر أساسها البناء التوليدي الملائم بين اللفظ و السياق لتحقيق الفهم و الإدراك و "الخضوع لما يقول النص في مرحلة أولى والتمرس على التعامل معه بدقة و أناة، حتى إذا باح بمكنوناته أمكن استثماره دون تعسف و لا اختزال لحقل التأويل الذي ينفتح عليه"[46].

لذلك حددت اللسانيات اللغة على أنها كائن حي، و يقول المسدي في هذا الضرب : هي " تركيبة قائمة في ذاتها أي أنها "كل" يقوم على ظواهر مترابطة العناصر، ماهية كل عنصر وقف على بقية العناصر، بحيث لا يتحدد أحد ها، إلا بعلاقتة بالعناصر الأخرى، فتكون اللغة جهازا ترتظم في كيانه عناصر مترابطة عضويا بحيث لا يتغير عنصر إلا انجر عن تغيره تغير وضع بقية العناصر"[47].

III-النقد و التظافر المنهجي:

إن الهدف المرغوب تحقيقه في هذا المجال هو محاولة رصد خلاصة عامة لما قدمه المسدي، حول قضية النقد و المنهج و التظ افر الحاصل بينهما باعتبار النقد موضوعه الأدب، و الأدب مادته هي اللغة ، و بذلك "سيتداخل الحديث عن الأدب والحديث في الأدب، سيوالجهما الحديث عن العلوم و المعارف، و سيمتزج الجميع بالتأمل في هموم الفكر و بعض هواجس الثقافة"[48]، و هذا التأمل في الخطاب الجامع بين الأدب و لغته هو بمثابة المراقب للأحداث السائدة على المستوى التداولي ، لذلك يكون الإبداع في الأدب إلهاما و في النقد تركيبا ، عقليا في مراقبة المركبة الخطابية فالإشكال الحاصل هو في استقراء المسالك المعرفية عند إنتاجها أو استقبالها، فالتوالج الفكري بين المعرفة اللغوية و المعرفة النقدية، هو الذي يجب التركيز عليه منهجيا، لخطة القراءة في الفهم و التأويل، هكذا "فبدل الحديث عن منهجية موضوعية علينا أن نعترف بوجود فعالية التأويل باعتباره منهج المناهج كلها، إن لم نقل الأصل الذي انحدرت منه"[49] .

لذلك فالمنهج هو الذي يختبر موافقة النص النقدي لمبادئه و مسلماته و انفتاحاته التأويلية في ظل النظرية التي تطرح أسئلة جوهرية "عما يجعل لغة الأدب أدبية، و

---

[46]-حسن بن حسن: النظرية التأويلية عند بول ريكور، ط2، منشورات الإختلاف ، الجزائر، 2003، ص 5.
[47]-عبد السلام المسدي: النقد و الحداثة، ص 45-46 .
[48]-عبد السلام المسدي: الأدب و خطاب النقد، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، 2004، ص 6.
[49]-عبد الغني بارة: الهرمينوطيقا و الفلسفة، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008، ص 25.

بالمثل عما يجعل بنية لغة الأدب و نصوصه بنية أدبية و عن الكيفية التي تعمل بها"[50] .

لذلك ليس من السهل ممارسة النقد الذي يقوم على مبادئ نظرية هامة "و مادامت مهمة الناقد على درجة من الصعوبة و الخطورة، فإنها تتطلب دون شك نقادا ذوي خبرة عالية تمكنهم من مجابهة مهامه م الشاقة بصبر وثبات، و من التغلب على المشاق بفضل ما وهبتهم الطبيعة من استعداد للقيام بهذه الرسالة"[51].

لذلك وجب على الناقد اليوم في مجال النظرية النقدية أن يستوعب المقاييس "العقلية الثابتة" في السلم النقدي لذلك "فالتحدي الإبستمولوجي الذي رف عه سارتر، هو إرجاع النشاطات البشرية إلى جذورها اليومية أو أصولها الواقعية . إنه نوع من "الأرضنة" بعدما انقطعت أواصر الخطاب الفلسفي أو العلمي عن أرضيتها المحايثة "[52] بغية الوصول إلى امتلاك اللغة العلمية و الخطاب التقني ، "و أول البدائه في هذا المقام أن انفجار النظرية النقدية قاد إلى الجوهر الذي حوله يتحدث النقاد فجعله جواهر، و جاء إلى موضوع النقد فجعله مواضيع : من الحديث عن الأدب، إلى الحديث عن النص، ثم عن الكتابة، فعن التلقي، في كل ذلك أنت لست متنقلا بين مصطلح و آخر، و لست متجولا بين البدائل، و إنما أنت مع كل لفظ تبرم عقدا فكريا جديدا له حيثياته و له اشر اطه"[53] إذا " لا يمكن بداهة أن نتصور الوصول إلى الكشف عن بنية الخطاب أو علاقته بالمؤسسة الأدبية أو الثقافية التي أنتجته، دون فحص دقيق للنص الذ ي أنتج تلك البنيةِ و ساعد على إظهار تلك العلاقة"[54] .

فليس من الضروري التحدث عن خطاب النقد و نقد النقد، و نص النص بقدر ما هو ضروري التظافر المنهجي لذلك "لا توسم مرحلة معينة لأمة ما بالمتطورة إلا بمقدار ما يقدم فيها من بحوث علمية، و لا يمكن أن يكتسب البحث صفة العلمية إلا إذا قام على منهج يسهل سير البحث، و يؤدي إلى الابتكار و يقود الفكر"[55].

و بذلك سيلزم الحديث عن المنهج كلما اقتضى الحديث عن الأدب و النقد، فالوعي الجديد يتشكل في المنظور المنهجي مع مختلف الصور الفكرية ، منها الفلسفة و الأدب و العلوم الإنسانية، "و هكذا تتواتر صور تنبيه المنهج الجديد في الدراسة ... على تخطي

---

[50]-ديفيد بشبندر: ترجمة عبد المقصور عبد الكريم، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005، ص 15.
[51]-عمار بن زايد: النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 36.
[52]-محمد شوقي الزين: الإزاحة و الإحتمال، ط1، الدار العربيةِ للعلوم –ناشرون، 2008، ص 300، 301.
[53]-عبد السلام المسدي: الأدب و خطاب النقد، ص 10.
[54]-إدريس الخضراوي: الأدب موضوعا للدراسات الثقافية، ط1، جذور للنشر، المغرب، 2007، ص 66.
[55]-آمنة بلعلى: أسئلة المنهجية العلمية في اللغة و الأدب، دار الأمل، الجزائر، 2005، ص 20

جملة من العقابات المنهجية في التجربة النقدية ...و أولى لنا أن ننشد منهجا شمو ليا تكون به القدرة على ا ستكناه دقائق النص، و استكشاف كوامنه و تعريف م كامنه، دون أن نقبع لا في فخ البنيويين الرافضين الإنسان والتاريخ ...و الاجتماعيين الذين يعللون كل شيء تعليلا طبقيا ...و لا في فخ النفسانيين و هم الذين يودون جهدهم تفسير سلوكات المبدع من خلال تفسير الإبداع"[56]، فالرؤية المستقبلية في مستويات العلم هي نهج التوفيق بين النظريات لاستكشاف تجارب النقد الحديث في الممارسة الأدبية.

1-النقد و الأسئلة المستأنفة:

إن هذا الاستئناف عند المسدي " لا يقدم نفسه بديلا للمراجعة، و لا يطرح نفسه صنوا للاستدراك، و إنما في حدوده الأولية هذه يصادر على استلزام إعادة طر ح الأسئلة التي يخيل لنا أنها حسمت. و بناءا على كل ذلك يتعين على آلية الاستئناف أن تتحكم إلى المشهد المعرفي العام، رصدا له، و تطوافا بأسيجته"[57].

فهو يعتبر أن النقد بصفاته المعرفية يطمح إلى أن يكون علما، و حقيقة النقد هي أنه علم بغيره، لأن موضوعه القول الأدبي، فهو يحلل بطبيعته شاهد على حركة إبداعية ألفها مبدع ما و يكشف عن طبيعة هذا التأليف و بالتالي فالنقد ليس قائما بذاته بوجوده، بل هو قائم على وجود آخر للتأمل في بنية ذلك الآخر، و "إن السؤال الذي ينطرح كشرط أولي أمام كل نظر نقدي، و أمام كل تحليل لمضمون الأدب يتعلق بتعريف هذا الأخير، و بالطبع فلا وجود لأي تفكير لا يفترض معرفة موضوعه"[58] .

كما أن المسدي اعتبر انتماء الناقد إلى الأدب انتماء ضرورة ، و لكن انتماء الأديب إلى النقد انتماء صفة أو اختيار ، و العبور بين الثنائيتين "هو الذي يصنع اللحظة النقدية، و نسميها بذلك الاسم لأن الأعراض قضت بالفصل بين المعرفة و موضوعها، و إلا كان الأولى أن تسمى باللحظة "الأدبية النقدية" حتى تستوفي التسمية شرط انتماء الناقد إلى الأدب بواجب الضرورة لحظة العبور، هي نقطة التماس بين الدائرتين، و هي النقطة المشتركة الوحيدة، لأنها واقعة على محيط كلتيهما"[59].

و النقد في هذه الحالة يتمتع "بصلاحية الاختراق" فيعوض خسارته السابقة، لذلك يكون شأنه شأن العلم اللغوي من خلال الولوج إلى المعارف في بنيتها وجماليتها و هذا

---

[56]-مولاي علي بوخاتم: الدرس السيميائي المغاربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005، ص 69.
[57]-عبد السلام المسدي: بين النص و صاحبه، ط1، دار قرطاج، تونس، 2002، ص 6.
[58]-فانسان جوف: الأدب عند رولان بارث، تر: عبد الرحمن بوعلي ، ط1، دار الحوار، سوريا، 2004، ص 21.
[59]-المسدي: بين النص و صاحبه، ص 5.

يمنحه "سلطة الكفاءة" (L'autorité de la compétence)[60]، لأنه يعرف السنن الأصل ليصبح شاهدا عليها، و بمفهوم آخر :الآلة النقدية بفضل أدواتها التجريبية و ارتكازها على أسس نظرية يمكنها اختبار النصوص و الحكم عليها، و عن طريق الأسلبة يراجع النقد المبادئ العامة باستمرار، بحكم التسليم بنسبية الحقائق و هذا ما يكسبه كفاءة و وجاهة أكثر، لذلك وجب علينا أن نتبع العقل النقدي الحاضر ، لا الغائب و يقول المسدي في ذلك : "لو كنا نعيش طبقا لأصول الحكمة و كانت منظومتنا الثقافية يدبرها العقل النقدي الحاضر، أكثر مما يديرها العقل النقدي الغائب، لكان لنا في مج ال الأدب و العلم و المعرفة شأن آخر. فمواثيق الحكمة و دساتير الإ نصاف تقول: لو شهد شاهد واحد من المنتجين للخطاب النقدي المضاد، بأن أنموذجا واحدا من النقاد المجددين، قد توفق إلى تأصيل حقيقي لمشروع التجديد المعرفي ، لكان ذلك كافيا لإ قامة الحجة على أن الفكر النقدي الحديث قادر على إنجاز الارتقاء النوعي، بعد تحصيل التراكب الكمي" [61].

فلا يمكن أن نعتبر النقد مجموعة من الإجراء ات التي تعتمد التراكمات، للحصول على الكم من القواعد.

و إنما على النقيض من ذلك ، فالعمل النقدي لا يفترض أن يكون مجموعة من القواعد و النماذج، التي تجيب عن أسئلة الواقع، لأنه يبني قواعده من المعرفة العلمية التي يدركها العقل باستنتاج العلاقات المنطقية التي يقيمها و يضبط أحكامها ليدلي بها إلى أوطان الأدب و بذلك "يبقى النص مفتوحا و تظل قراءتنا ومشروعنا منفتحين على السؤال و البحث و الاستفادة من الإنجازات الهامة في مجال علوم الأدب و العلوم اللسانية و الاجتماعية بما يساهم في إنجاز قراءة أكثر إنتاجية و أكثر انفتاحا و قبولا للتطوير و الإغناء: إغناء و تطوير وعينا و قراءتنا للذات و للنصوص التي تنتج، أي بكلمة موجزة **إغناء المنهج** الذي به نحلل النص الذي نقرأ. و لا يمكن أن يتأتى هذا إلا عبر "التفاعل" الإيجابي القائم على الحوار الهادف و البناء ..."[62] فالتجديد المنهجي هو الذي يغني النص، و يفتح أفق المعارف و ذلك بإ عادة النظر في تعاملنا مع المعرفة " و إعادة البناء المتزن بموضوعية العلم و البحث لنلتمس الكون الشعري و المعرفي في ظل جماليته الخاصة و الجمالية العامة، مع مختلف فروع المعرفة الإنسانية، التي نصنع بها عالم اللغة الدالة، الذي يؤدي لا محالة و باستمرار إلى عالم أفضل"[63].

---

[60] -Roland Barthes, S/Z, Edition du seuil, Paris, 1970, P174

[61]-المسدي : الأدب و خطاب النقد، ص 222-223 .

[62]-سعيد يقطين : إنفتاح النص الروائي ، ط2، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2001 ، ص 154.

[63]-أحمد بوحسن: في المناهج النقدية المعاصرة، ط1، دار الامان، المغرب، 2004، ص9.

"وكان من الطبيعي أن يتناول الغزالي موضوع تقسيم العلوم و ترتيبها، فسلك في ذلك مقاييس متنوعة : منها المعياري، إذ جعل العلوم فيها المحمود و المذموم والمباح و منها المعرفي، إذ فيها الأصول و الفروع و المقدمات و المتممات ...فعلم الأدب مداره إجمالا العلم بالأشعار، و علم اللغة و علم النحو ...فالأدب بذاته إنما يكون في خدمة اللغة، و يكون النقدي في خدمة المعرفة الإصطلاحية، بهذا يتجلى أن علم الأدب هو علم مساعد، و أن النقد هو جهاز خادم ، يدخل ضمن الآليات المسخرة لغير ذاتها "[64] و المسدي يقصد بعلم الأدب المعرفة النقدية "فالذي يقوم مقام المعرفة النقدية – أو قل علم الأدب– هو العلم المتصل بإبداعية اللغة وهو على الإعجاز، الذي يمثل عقد القرانُ بين الشعر و النثر و البلاغة والتفسير، فالحضارة الغربية الإسلامية قد انبنت في سلم قيمها على المعرفة المعقلنة للنص الذي لم يكن أدبا في ذاته و إنما تحلى بالإبداع الأدبي ليثبت نفسه كنص معجز لمتلقيه"[65].

2-النقد الأدبي و العلوم الإنسانية:

إن الطرح الذي يتحدث عنه المسدي في هذا المجال هو خصوصية العلاقة بين النقد الأدبي و أ فنان العلوم الإنسانية الأخرى، "حتى لا يتحول التظافر إلى تداخل يخرجه عن مقاصده بإذابة إحدى الهويتين، فمرامنا إذن هو في نفس الوقت و بنفس الحرص الدفاع عن منهج التكامل و محاولة تحصين مجال الأدب عامة، مما أصبح يضايقه في أدق مراسمه النوعية"[66].

الظاهر أن الباحث يعيش نمطا من أنماط الإشكاليات الجديدة بالكشف عن طبيعة الصلة بين المعارف النقدية في تلك العلوم الإ نسانية في قطاع الأدب خشية التناثر و فقدان الهوية المميزة بين الحقول و " لقد جاء هذا الإبدال الجديد ليدافع عن "النظام" ضد "الفوضى" و عن تكامل العناصر ضد تشتتها و عن خطية النص ضد لاخطيته" [67] .

و جاء هذا التصور تحت تأثير الاستفادة من النقد الغربي كما تبلورت المفاهيم للأدوات و الآليات الحديثة في الإنتاج و التلقي و القراءة لما حدث في العقدين الأخيرين من تطور على ذات معنى "الأدب" و النقد و "القراءة" وتشكل هذه العناصر ، في اعتقادنا، المبادئ الأساس التي يجب الاستناد إليها من أجل الحديث عن نقد ينتج

---

[64]-المسدي: في آليات النقد الأدبي ، ص 122، 123.
[65]-المرجع نفسه، ص 128.
[66]-المسدي: في آليات النقد الأدبي، ص 17.
[67]-سعيد يقطن: من النص إلى النص المترابط، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب2005، ص 160.

معرفة حقيقية تخص الإنسان و تكشف عن خصو صرياته في الزمان وفي المكان، و تسهم في إغناء رؤانا النظرية باستمرار.

و هي نفسها التي تمكننا من تصنيف النق د ضمن حركة فكرية شاملة تحتض ن القضايا"[68] .

فالناقد لا يخلد في حقبة فكرية معينة تخص الإنسان في مرحلة ما و لكنه يتتبع دوام الخطاب النقدي من مرحلة إلى أخرى، حسب ما تفوضه الوظائف التي تندمج إليه، فهو لا يقف على الدلالات القائمة في الأثر نفسه:

"لأن أساس الاصطلاحات الفنية هي مرونتها في إحياء الدلالة ، كما أدرجها Jean-Marie في نظام علم معاني الكلمات Sémantique على مستوى الاستعمال المصطلحي Terminologique في إبراز طريقة تشكل المصطلح وطريقة إحيائه و استخلاص دلالته على مستوى الاستقراء النقدي"[69] .

فالمبدع هو الذي يبتكر الشكل و لكن الناقد هو مبدع بالدرجة الثانية من ذلك الشكل بإحيائه و استخلاص منه الدلالة و تعتبر الدلالة " المنفذ الواسع إلى الأدب إذ لا ولوج إليه إلا من بابها، و سواء أصدق ما يلتقطه القارئ المتمتع بالأدب و ما يستك نهه الناقد المتمعن فيه أم لم يصدق، و سواء أكان ما حصل لدى هذا و ذاك متفردا لديه ما في بعده الدلالي أم تعددت دلالاته بل و سواء أحصلت الدلالة فعلا أم انحجبت تحت ستائر الغموض الإبداعي ، كما يروق للبعض أن يعلل فإن مناط النقد من أي الأ سلاك مسكته ليس إلا كشفا لحجب المعنى من وراء حلل اللغة"[70].

فالحقيقة الوظيفية في جوهر النقد الأدبي هي ليست حقيقة في البديهيات المكررة. و إنما هي امتزاج دلالي بين اللفظ و المعنى تمارس على النصوص لتنعتها و تحكم على موضوعيتها . و يكتب إيخمباوم موضحا :" لقد اعتبرنا و لا نزال نعتبر كشرط أساسي أن موضوع العلم الأدبي يجب أن يكون دراسة الخصيصات النوعية للموضوعات الأدبية، التي تميزها عن كل مادة أخرى و هذا باستقلال تام عن كون هذه المادة تستطيع بواسطة بعض ملامحها الثا نوية أن تعطي مبررا لاستعمالها في علوم أخرى كموضوع مساعد"[71] .

---

[68]-سعيد بنكراد:السرد الروائي و تجربة المعنى، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب 2008، ص 25.

[69] -Jean-Marie, le sens Rhétorique, Essais de Semantique littéraire, Khinkenberg, P 128-129.

[70]-المسدي: في آليات النقد الأدبي، ص 18.

[71]-سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ط3، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1997، ص 13.

و حسب المسدي مادامت الدلالة هي موضوع هذه الوظيفة "ليس لأحد أن يمتلك حق إقصاء الآخرين عنها مادام موضوعها هو الدلالة **بدون حصر** : نعني بإطلاق اللفظ مصحوبا بالتعريف الدال على جنسه و ما ال نعوت التي يلتجئ الناس إليها فيردفونها إلى لفظ الدلالة لتخصيص معناه – كقولهم الدلالة المنطقية أو الدلالة التاريخية –إلا حجة كبرى على أنه ملك مشاع ليس بوسع علم أن يدعي بمفرده ملكيته العينية "[72] .

و يشير أيضا الدارس إلى أولى المعارف و أسبقها في قضية الدلالة و هي الفلسفة لأنها هي المعنية بكشف الحجاب عن الأشياء و الظواهر و الوقائع لأنها تبنى أسسها على المنطق العقلي في كشف الدلالات "من هنا فإن التساؤل حول عالم المعنى و عن كيفية تحديد حجمه و عن شروط إنتاجه و نمط اشتغاله ، هو في واقع الأمر تساؤل حول النشاط الإنساني باعتبار البؤرة المولدة و الحاضنة لهذا المعنى"[73] .

و هذا النشاط في التساؤل حول عالم المعنى لا يكون منبعه إلا من مشارب العقل الفلسفي، "و ينازع الفلسفة في أمر الدلالة علم التاريخ ...في حقل النقد الأدبي حتى لكأنه تخطى بها مواقع الفلسفة ثم استبد بأ عناق الأدب فخيل للناس أن لا مدخل إلى فهم الأدب إلا من بابه"[74].

الخاتمة:

نأتي إلى خاتمة بحثنا لنستخلص أهم النتائج التي انتهينا إليها من خلال استطلاعنا على أعمال الدكتو ر "عبد السلام المسدي" في حصيلة بحثه، انطلاقا من المرحلة التي كان يمر بها حقل الدراسات الأسلوبية، عند رواده و أهله ، سالكا في ذلك ممر المنهج

---

[72]-المسدي: آليات النقد الأدبي، ص 18.
[73]-سعيد بنكراد: النص السردي ، ط1، دار الأمان، المغرب، 1996، ص 6.
[74]-المسدي: في آليات النقد الأدبي، ص 19.

اللساني، ليقتحم ميدان النقد الأدبي، ما جعله يحتل مكانة حيادية بين النقاد، فهو لم يتقيد في تعامله مع النقد الجديد بمفاهيم دون أخرى، إنما التفت إلى مختلف الاتجاهات من بينها الأسلوبية و اللسانية و البنيوية، إلى جانب مواضع معرفية مكثفة شملت حقبا أدبية عديدة.

و حاول الإلمام بمعالمها تنظيرا و تطبيقا، و بذلك نالت الأسلوبية مختلف تياراتها، حظا وافرا من العناية، و تليها في نسبة الاهتمام الإنشائية، بمختلف اتجاهاتها.

أما مظاهر النقد الجديد الأخرى، و منها على وجه التحديد اللسانيات، التي كانت الأساس المنطلق منه في التفاته إلى التيارات الأخرى، كما أن البعد المعرفي الإبستيمولوجي ليس غائبا في حقل الدراسات الأسلوبية العربية، و من أبرز ما يتجلى فيه هذا المظهر عند المسدي هو البحث في علاقة الأسلوبية بمجلات معرفية أخرى، و منها على وجه الخصوص اللسانيات بالنظر في الكيفية التي تتعامل بها مع مبادئها الإجرائية و البحث في الأسس التي تقوم عليها المباحث الأسلوبية، في جل اتجاهاتها و على يد مختلف روادها، و الوقوف على الاختلافات الجوهرية بين الدارسين في تقديمه النظريات الغربية.

و تعدى مظهر الاهتمام عنده إلى قضية المنهج ، و ضرورة الالتزام به، لأن صراع النقد الأدبي بين قديم و حديث و بين المفاهيم الأخرى، بالنسبة إليه، يعود إلى المنهج، فالقضية عنده هي قضية منطلقات و أسس ، تتحرك عليها جل المعارف و الخلفيات المعرفية السليمة القائمة على أسس المنهج العلمي هي التي تحدد الخطأ و الصواب.

فالأساس في البحث ليس الكمية المحصل عليها من المعارف، و لكن الأساس هو طريقة التفكير السليم في تلقي و استنتاج المعارف، و الخطر النابع هو خطر التأويل الغلط و غياب الرؤية المتبصرة وراء الأشياء ، و لعل الذي عطل بروز الفكر العربي على الساحة النقدية العالمية هو مشكل منهج فكري ، لا يستلهم أعماق المعالم و إنما فقط يفرط في الحديث عنها، و هذا غير كافي لبناء المعرفة العلمية ، لأن العلم أساسه التجربة المستخلصة من السبب و النتيجة و نحن ننطلق من النتائج و لا نتبصر فيها، ولا نكشف عن علاقاتها، و خاصة لما هو سائد اليوم من القضايا الج ديدة لما هي عليه من التراكب و التعقد، و المفاهيم الدقيقة و منعطفاتها التي لم تعهدها من قبل.

فالاغتراف من منابع المعرفة الجديدة ، يتطلب توفر جملة من المعطيات المعرفية المنتظمة في بناء متكا مل، يمكن اختصارها في كلمة واحدة هي "التجربة" باعتبارها

الأساس في كل معاملة مع المناهج الحديثة ، بالانفتاح عليها إلى غاية ما ينتهي إليه المنطق، و إحياء المعالم بتوظيفها و الخضوع لها و التقيد بمبادئها تقيدا تاما و التعريف بالأسس النظرية و الإجرائية التي تنبني عليها الاتجاهات: كالاتجاه البنيوي، لما فيه من تقصير في البحث ، لانعدام التركيز على اتجاه معين و الإلمام بمعالمه، إلى القفز نحو اتجاه بعده، دون مراعاة التكامل و الامتداد في هضم المعارف.

لذلك وجب علينا مراجعة مبادئ ا لعلم الذي يتخذ الأدب موضوعا له و م راجعة التصورات القبلية السائدة المسلم بها ...و ذلك بعدم الاستقرار على معرفة تراثية، تعكس عقلية حتمية، تحت صدمة المسلمات الذهنية، باعتبارها المرجع العفوي الذي يكرس الموثوقات المعرفية، و هذا الذي بات مشهودا في ثقافتنا.

و من هذه الحقيقة انطلق الباحث خارجا عن النسق المألوف، بالتأمل في هموم ا لفكر من العلم المتصل بالظاهرة اللغوية، في مختلف تجلياتها وما جاء منها على صياغة الفن الأدبي باعتبارها الهاجس الفكري الأساسي بين أهل الدراية في الحداثة النقدية اليوم، عسى أن يكون ذلك وعي إضافي لما هو سائد.

بيبليوغرافيا

(1)- ملحق خاص بالدكتور "عبد السلام المسدي" :

-الدكتور عبد السلام المسدي من مواليد مدينة صفاقص (تونس) 1945، متخرج من كلية الأدب، و دار المعلمين العليا في الجامعة التونسية ، حيث حصل على الإجازة و على التبريز و على دكتورا الدولة.

-أستاذ اللسانيات في الجامعة التونسية (كلية الآداب-منوبة) منذ 1972.

-عضو المجمع العلمي العراقي منذ 1989.

-عضو المجمع التونسي لعلوم الآداب و الفنون منذ 1997.

-عضو مجمع اللغة العربية في الجماهيرية الليبية منذ 1999

-عضو مجمع اللغة العربية في دمشق منذ 2002.

-اضطلع بمهام سامية في الفترة 1987-1991 : وزيرا للتعليم العالي و البحث العلمي، ثم سفيرا لدى الجامعة العربية فسفيرا لدى المملكة العربية السعودية.

- **صدر له:**

***في اللسانيات :**

-التفكير اللساني في الحضارة العربية : 1981.

-قاموس اللسانيات : 1984.

-اللسانيات و أسسها المعرفية : 1986.

-اللسانيات من خلال النصوص : 1986.

-مراجع اللسانيات : 1989.

-قضايا في العلم اللغوي : 1994.

-ما وراء اللغة: 1994.

-مباحث تأسيسية في اللسانيات : 1997.

-العربية و الإعراب : 2003.

-الشرط في القرآن (مشترك): 1985.

***في النقد الأدبي:**

-الأسلوبية و الأسلوب : 1977.

-قراءات مع الشابي و المتنبي و الجاحظ و ابن خلدون : 1981.

-النقد و الحداثة: 1983.

-مراجع النقد الحديث: 1989.

-قضية البربرية : 1991.
-مساءلات في الأدب و اللغة: 1994.
-المصطلح النقدي: 1994.
-في آليات النقد الأدبي: 1994.
-الخيال الشعري عند العرب: 1994 .
-أبوالقاسم الشابي في ميزان النقد الحديث : 1996.
-بين النص و صاحبه : 2002.
-الأدب و خطاب النقد: 2004.
-النظرية اللسانية و الشعرية في التراث العربي (مشترك) : 1988
-محمود المسعدي بين الإبداع و الإيقاع (مشترك) : 1997.
-صورة الحبيب بين المقدس و الدنيوي (مشترك) : 2005.

***في السياسة:**

-العولمة و العولمة المضادة : 1999.
-اتقوا التاريخ أيها العرب : 1999
-العرب و السياسة : 2001.
-التضخم أسبابه و مظاهره (ترجمة) : 1979.

***في الإبداع :**

-فتنة الكلمة : 1998.
-الأدب العجيب: 2000
-رواية تنتظر من يكتبها : 2002.

2- *قائمة المصادر و المراجع: (مرتبة ترتيبا ألفبائيا)*

أ-الكتب العربية:

1-المسدي، عبد السلام: اللسانيات من خلال النصوص ، ط 2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986.

2-المسدي، عبد السلام: مباحث تأسيسية في اللسانيات، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس ، 1997.

3-المسدي، عبد السلام: العربية و الإعراب، مركز النشر الجامعي، تونس ،2003.
4-المسدي، عبد السلام: الأسلوبية و الأسلوب -نحو بديل ألسني في نقد الأدب، الدار العربية للكتاب، تونس،1997.
5-المسدي، عبد السلام : الأسلوبية و الأسلوب ، ط5، دار الكتاب الجديدة المتحدة/ بنغازي ليبيا، 2006.
6-المسدي، عبد السلام : قراءات مع الشابي و المتنبي و ا لجاحظ و ابن خلدون ، ط 2، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ، 1984.
7-المسدي، عبد السلام: النقد و الحداثة، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1983.
8-المسدي، عبد السلام: النقد و الحداثة ، ط2، دار أمية، تونس، 1989.
9-المسدي، عبد السلام: قضية البنيوية -دراسة و نماذج، دار الجنوب، تونس 1995.
10-المسدي، عبد السلام : مساءلات في الأدب و اللغة، ط 1، كتاب الرياض، العدد 10، الرياض 1994.
11-المسدي، عبد السلام: المصطلح النقدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ، تونس، 1994.
12-المسدي، عبد السلام: في آليات النقد الأدبي، دار الجنوب، تونس، 1994.
13-المسدي، عبد السلام: الشابي، الخيال الشعري عند العرب، ط1، دار المغرب العربي، تونس، 1994.
14-المسدي، عبد السلام: أبو القاسم الشابي في ميزان النقد الحديث، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس ، 1996.
15-المسدي، عبد السلام: بين النص و صاحبه، ط1، دار قرطاج، تونس، 2002.
16-المسدي، عبد السلام : الأدب و خطاب النقد، ط 1، دار الكتاب الجديدة المتحدة/ بنغازي- ليبيا، 2004.
17-المسدي، عبد السلام (و آخرون): محمود المسعدي بين الإبداع و الإيقاع، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1997.
18-المسدي، عبد السلام (وآخرون): صورة الحبيب بين المقدس و الدنيوي -في شعر عبد الله باشراحيل،مشترك، ط1،دار الفارس،بيروت، 2005.
19-صمود، حمادي: الوجه و القفا- في تلازم التراث و الحداثة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1988.

20–مفتاح، محمد : التلقي و التأويل –مقاربة نسقية، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ، 2001.
21–مفتاح، محمد: دينامية النص، تنظير و إنجاز، ط3، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، 2006.
22–مفتاح، محمد: التشابه و الاختلاف –نحو منهاجية شمولية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1996.
23–مفتاح، محمد: المفاهيم معالم –نحو تأويل واقعي، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1999.
24–مفتاح، محمد: تحليل الخطاب الشعري –إستراتجية التناص ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، المغرب ، 1985
25–العمري، محمد: البلاغة الجديدة، بين التخييل و التداول، إفريقيا الشرق يناير، المغرب ، 2005.
26–يقطين، سعيد: الكلام و الخبر –مقدمة للسرد العربي، ط1، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، 1997.
27–وغليسي، يوسف: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف ، الجزائر، 2008.
28–بارة، عبد الغني: الهيرمينوطيقا و الفلسفة –نحو مشروع عقلي تأويلي، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف ، الجزائر، 2008.
29–مصدق، حسن: يورغن هابرماس و مدرسة فرانكفورت –النظرية النقدية التواصلية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005.
30–قطوس، بسام: المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، ط 1، دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2006.
31–بوخاتم، مولاي علي: الدرس السينيمائي المغاربي –دراسة وصفية نقدية إحصائية في نموذجي عبد الملك مرتاض و محمد مفتاح، ديوان
المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005.
32–بوحسن، أحمد: في المناهج النقدية المعاصرة، ط1، دار الأمان،المغرب، 2004.
33–بلعلى، آمنة: أسئلة المنهجية العلمية في اللغة و الأدب، دار الأمل للطباعة والنشر و التوزيع ، الجزائر، 2005.

34-بنكراد، سعيد:النص السردي-نحو سيمائيات للإيديولوجيا، ط1، دار الأمان، المغرب 1996.
35-بنكراد، سعيد : السرد الروائي و تج ربة المعنى، ط 1، المركز الثقافي العربي ، الدارالبيضاء، المغرب، 2008.
36-بنكراد، سعيد : السيميائيات و التأو يل -مدخل الس يميائيات ش .س.بورس، ط 1، المركزالثقافي العربي ، الدار البيضاء، المغرب، 2005.
37-بنكراد، سعيد: السيميائيات -مفاهيمها و تطبيقاتها، سلسلة شرفات، العدد 11، منشورات الزمن، المغرب، 2003.

38-الخضراوي، إدريس:الأدب موضوعا للدراسات الثقافية، ط1، جذور للنشر، المغرب، 2007.
39-الزين، محمد شوقي : الإزاحة و الإحتمال -صفائح نقدية في الفلسفة الغربية، ط 1، الدار العربية للعلوم ناشرون منشورات الإختلاف، الجزائر، 2008.
40-ابن زايد،عمار:النقد الأدبي الجزائري الحديث،المؤسسةالوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
41-مرتاض، عبد المل ك: التحليل السيمائي للخطاب الشعري -تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2001.
42-مرتاض، عبد الملك: السبع معلقات -دراسة شعرية- مقاربة سيميائية أنتروبولوجية، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998.
43-مرتاض، عبد الملك: نظرية القراءة -تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية، دار الغرب ، الجزائر، 2003.
44-مرتاض، عبد الملك: بنية الخطاب الشعري، دار الحداثة، بيروت، 1986.
45-إبراهيم ، زكرياء: مشكلة البنية، دار سحنون، تونس، 1990.
46-ابن بوعزيز، وحيد : حدود التأويل -قراءة في مشروع أمب رتوايكو النقدي، ط 1، الدارالعربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008.
47-شرفي، عبد الكريم : من فلسفات التأ ويل إلى نظريات القراءة -دراسة تحليلية في النظريات الغربية الحديثة، ط 1، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الإختلاف، الجزائر، 2007.
48-مونسي، حبيب: نقد النقد -المنجز العربي في النقد الأدبي- دراسة في المناهج،

منشورات دار الأديب، الجزائر، .2007
49-مونسي، حبيب: نظريات القراءة في النقد المعاصر، منشورات دار الأديب، الجزائر، 2007.
50-أحمد، إبراهيم: أنطولوجيا اللغة عند مارتن هيدجر، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الإختلاف، الجزائر، 2008.
51-فضل، صلاح: مناهج النقد المعاصر، أفريقيا الشرق، المغرب، 2002.
52-فضل، صلاح: علم الأسلوب -مبادئه و إجراءاته، ط2، الهيئة المصرية العامة، للكتاب، 1985.
53-فضل، صلاح: نظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1978.
54-سبيلا، محمد: في الفكر المعاصر -حوارات، ط1، منشورات دار ما بعد الحداثة، المغرب، 2006.
55-ابن عمر، البشير: الفكر الأدبي عند العرب في العصر الحديث -بحث في التجليات و الأصول و القيمة ، تقديم الباردي، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، صفاقص، 2002 .
56-السيد ولد أباه: التاريخ و الحقيقة لدى ميشل فوكو، ط2، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2004.
57-حجازي، سمير سعيد: مناهج النقد الأدبي المعاصر -بين النظرية و التطبيق، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2007.
58-أديوان، محمد: النص و المنهج، ط1، دار الأمان، الرباط، 2006.
59-جسوس، عبد العزيز: إشكالية الخطاب العلمي في النقد الأدبي المعاصر، ط1، المطبعة و الوراقة الوطنية الداوديات، مراكش، 2007.
60-إنقزو، فتحي: هوسرل و معاصروه -من فينومينولوجيا اللغة إلى تأويلية الفهم، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006.
61-ابن حسن، حسن: النظرية التأويلية عند بول ريكور، ط2، منشورات الإختلاف، الجزائر، 2003.
62-دحامنية، مليكة: هيرمنيوطيقا النص الأدبي في الفكر الغربي المعاصر، سلسلة الدراسات، العدد (10) ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2008.

63-بلعابد، عبد الحق: عتبات -جيرار جينيت من النص إلى المناص، تقديم سعيد يقطين ، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الإختلاف، الجزائر، 2008.
64-يقطين ، سعيد: انفتاح النص الروائي -النص و السياق، ط1، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، 2001.
65-يقطين ، سعيد: تحليل الخطاب الروائي -الزمن السرد، التبابر- ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ، 1997.

66-يقطين، سعيد: من النص إلى النص المترابط -مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء -المغرب، 2005.
67-القاضي، محمد: تحليل النص السردي- بين النظرية و التطبيق، دار الجنوب للنشر، تونس، 1997.
68-القاضي، محمد (و آخرون): الكتابة عند المسعدي ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1997.
69-العمري ، محمد (و آخرون):الإيقاع تنظيرا و ممارسة عند المسعدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1997 .
70-صولة، عبد الله: مفهوم الإيقاع عند المسعدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1997.
71-أدونيس: الثابت و المتحول -صدمة الحداثة، ج3، دار العودة، بيروت، 1979.
72-محمد عياد، شكري: الأسلوبية الحديثة، فصول يناير، .1981
73-محمد عياد، شكري: اللغة و الإبداع -مبادئ علم الأسلوب العربي، 1988.
74-محمد عياد، شكري: بين الفلسفة و النقد، منشورات أصداء الكتاب، القاهرة، 1990.
75-عزام، محمد: الأسلوبية منهجا نقديا، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق، 1989.
76-مصلوح، سعد: الأسلوب -دراسة لغوية إحصائية، ط1، دار الفكر العربي، 1984.

ب-الكتب المعربة:

77-بشبندر، ديفيد: نظرية الأدب المعاصر و قراءة الشعر، ترجمة عبد المقصور عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، 2005.
78-إيكو، أمبرتو: العلامة -تحليل المفهوم و تاريخه- ترجمة سعيد بنكراد، مراجعة

سعيد الغانمي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 2007.
79-فوكو، ميشال: حفريات المعرفة، ترجمة سالم يف وت، ط3، المركز الثقافي العربي بيروت/الدار البيضاء، 2005.
80-جاكوبسن (رومان)، هالة (موريس): أساسيات اللغة، ترجمة سعيد الغانم، ط1، كلمة، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 2008.
81-روبين سليمان(سوزان)، كروسمان (إنجي): القارئ في النص -مقالات في الجمهور و التأويل، ترجمة حسن ناظم و علي حاكم صالح، ط 1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، 2007.
82-جاسير، دايفيد: مقدمة في الهيرمينوطيقا، ترجمة وجيه قانصو، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الإختلاف ، الجزائر، 2007.
83-إيجلتون، تيري: مقدمة في نظرية الأدب-كتابات نقدية، العدد 11، ترجمة أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1991.
84-ياكوبوسون، رومان: الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ترجمة حاكم صالح و حسن ناظم، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 2002.
85-جوف، فانسان: الأدب عند رولان بارث، ترجمة عبد الرحمن بوعلي، ط1، دار الحوار، سوريا، 2004.
86-بلانشو، موريس: أسئلة الكتابة، ترجمة نعيمة بنعبد العالي و عبد السلام بن عبد العالي، ط1، دار توبقال، المغرب، 2004.
87-إيكو، أمبرتو: سيميائيات الأنساق البصرية، ترجمة محمد التهامي العماري و محمد أوداد، مراجعة و تقديم سعيد بنكراد، ط1، دار الحوار، سوريا، 2008.
88-لا يكوف (جورج)، جونسن (مارك): الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، ط1، دار توبقال، المغرب، 1996.
89-مورو، فرانسو: البلاغة -المدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة الولي محمد وجرير عائشة ، أفريقيا الشرق، المغرب، 2003.
90-أرمينكو، فرانسواز: المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإ هاء القومي، الرباط، 1986.

ت-الكتب الأجنبية:

91-Claudine tiercelin : C. S Peirce et le pragmatisme, presses universitaires de France, 1er Edition, paris, 1993.
92-L.Hjelmslev : Prolégomènes à une théorie du langage, Paris, Muruit, 1968.
93-Roland Barthes : Mythologie, Edition de seuil, 1957.
94-Roland Barthes : S/Z, Edition du seuil, Pris, 1970.

95-Jean-Marie : Le sens rhétorique, essais de sémantique littéraire, klinkenbergK, 1990.
96- S.Doubrosky : Pourquoi la nouvelle critique, Mercure de France, 1966.
97-Roland Barthes : le degré Zéro de la lecture, Gonthier, 1964.
98-G. Genette : figures I , Edition de seuil, paris, 1966.